

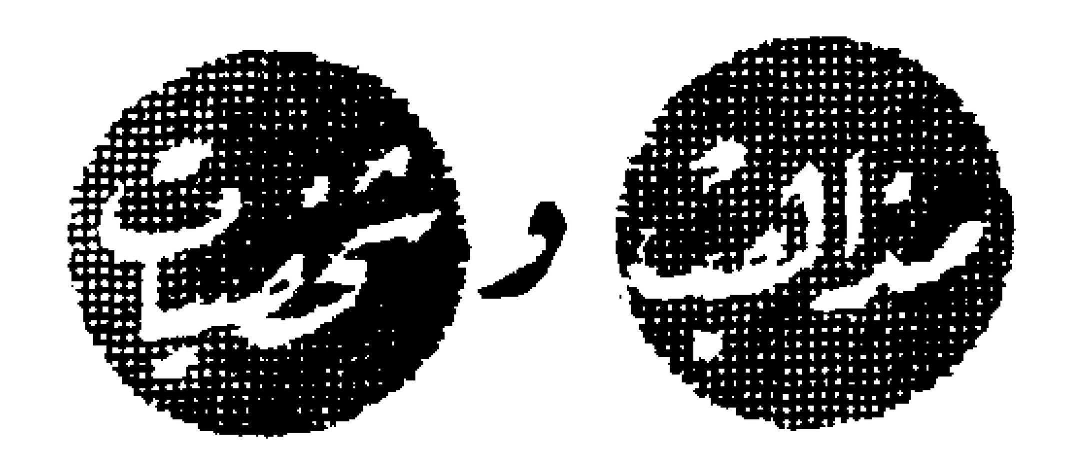
مذاهب وشخصيات

من أعلام الأدب الأوروبي

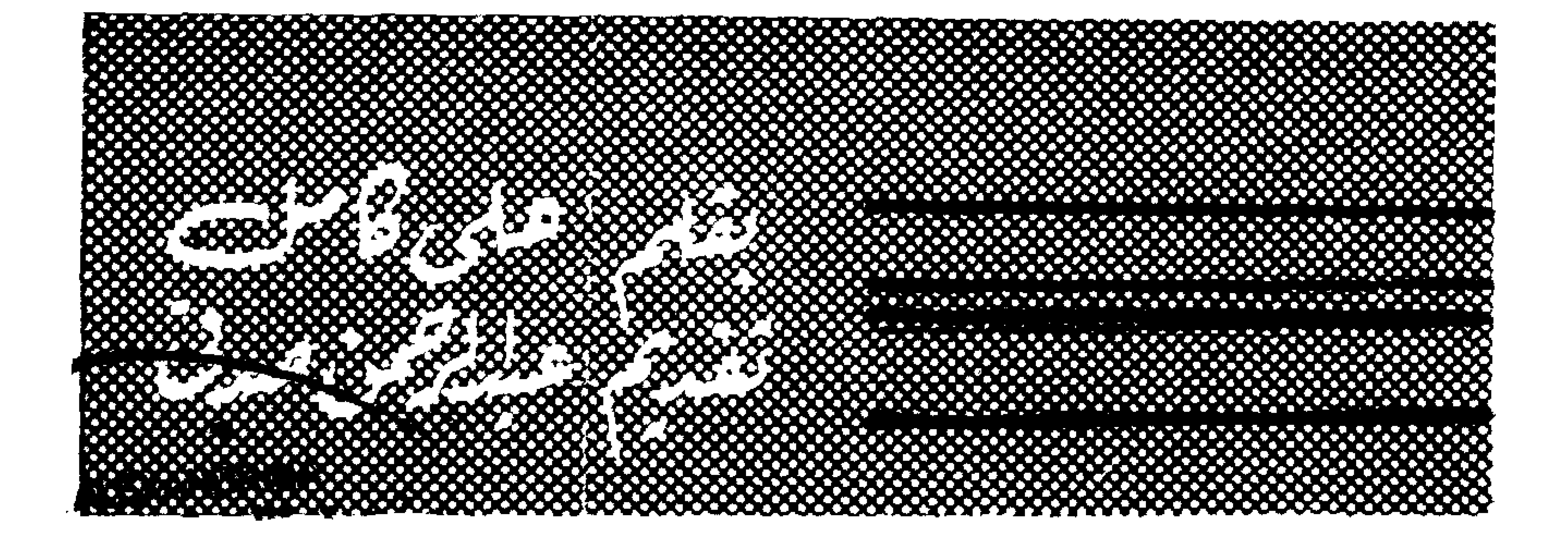
بقلم علي كامل

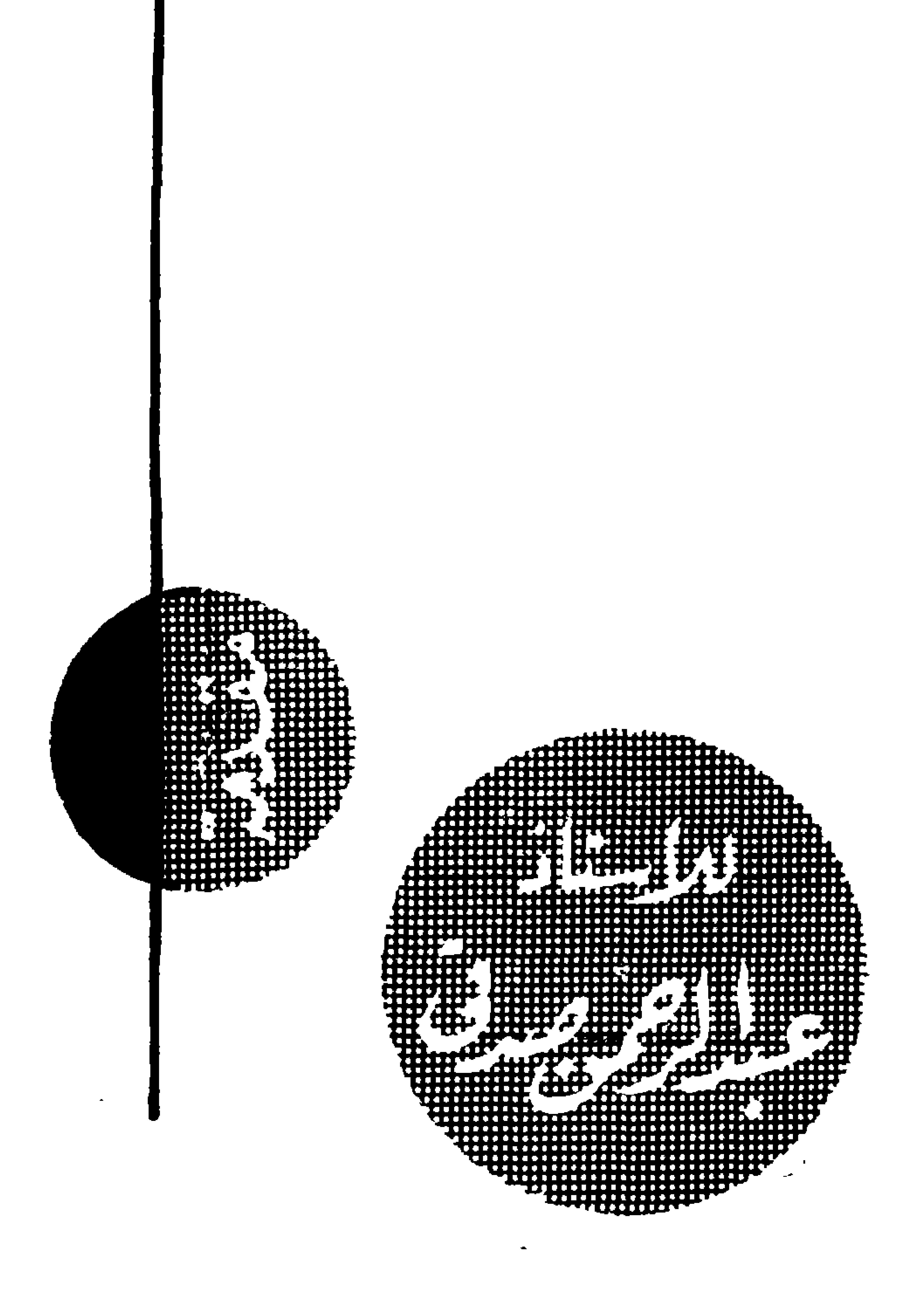
تقديم عبد الرحمن صدقي





من أعلام الأدب الأوروبي





يضم هذا الكتاب دراسات موجزة تناولت فى لطافة وبراعة وعمق بعض أعلام الادب الاوربى من أبناء القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، وكلهم من الفرنسيين عدا «لويجى بيراند يللو» الايطالى الذى بدأ حياتهالادبية فى أواخر القرن الماضى شاعرا وقصصيا ثم لمع اسمه فى الروايات الطويلة وبلغ غاية شهرته فى المسرحية فى أوائل القرن الحالى .

وقد كان صاحب هذه الدراسات موفقا في اختيــار هــذه المجموعة من المؤلفين فهم في جملتهم من أصــحاب المكانة ، وبعضهم ممن له الرياسة في القصص أو المسرح أو النقد ثم هم فوق ذلك انماط مختلفة يكاد يستقل كل واحــد منهم بشــخصيته وسماته ولونه وتركيب مزاجه وسائر شمائله وصفاته ، فضلا على منازع شعوره واتجاه تفكيره وأسلوب تعبيره •

فهذا « بلزاك » صاحب المدرســة الواقعية في فن القصة ، ومؤلف هذا الحشد الحاشد من القصص التي يطول بنا تعداد أسمائها فنكتفي هنا للدلالة عليهــا بالاسم الجامع الذي وصفها به مؤلفها ، فليس هنالك أصدق من اسم « الــكوميديا البشرية » عنوانا على هذه المجموعة التي تصور واقع المجتمع على حقيقته الفاجعة المضحكة •

وهذا « سانت بيف » وهو أيضا صاحب مدرســة في النقد الادبي لا تقف في فهم المؤلف عند حد كتاباته، بل تســتعين كذلك بدراسه حياته ولا ســيما حياته الخاصة كما يرويها أخصاؤه وتنم عليها رسائله ، وكما تحكيها صوره في سائر أطوار عمره ، فضلا على دراسة منشئه وأحوال أسرته وبيئته ومن هنا كان نقد «سانت بيف » جامعــا بين المنهــج التــاريخي والســيكولوجي والفزيولوجي ، يضاف اليه مايخلعه عليه «سانت بيف» من نزعته القصصية وخيــاله الشعري ، فاذا نحن أمام دراسة أشبه بالتصوير لغلبة الوصف عليها •• وهــذا التصوير مع عنايته بالبيئة الوسط التاريخي بعيد عن أن يكون من قبيل اللوحات الكبيرة الشاملة ، بل هو على الأخص أقرب في تركيزه الى فن الصورة الشخصية التي تطالعنا ممتازة بسماتها قائمة بذاتها •

وهذا « فرانسوا كوبيه » الشاعر والمؤلف المسرحي الذي يتوجه في شعره ومسرحياته الى نفوس البورجوازية والعــامة فيستدر دموعهم لمنــاظر البؤس والشــقاء في بلادهم ، ويهز مشاعرهم لمواقف البطولة والشــجاعة وحسن البلاء في تاريخهم •

وعلى خلافه « اندريه مالرو » الذى يهرب بقلقه الداخلى الى بلاد غير وطنه ، الى قلاقل الصين وثورتها أو الى الحرب الاهلية فى شبه الجزيرة الاسبانية ، ومن هنالك يطلع علينا بذلك التعبير الفاجع عن داء العصر الحاضر وما ينال الناس هنالك من ويلاته فاذا هو يشاركهم فى لوعاته وهزات انفعالاتهم كأنه وهم أبناء وطن واحد ٠

وهذا اناتول « فرانس » بنظرته الساخرة المشفقة الى ماضى الانسانية وحاضرها ، وتشككه المتسامح فى معتقداتها ومذاهبها فى الدين والسياسة والاجتماع فى سائر العصور قديمها وحديثها ٠

وعلى خلافه « رومان رولان » وهو من أشد الادباء تأثرا بالموسيقى وايمانا بالمثل العليا وكان يؤثر العزلة فى سويسرا المحايدة ، ومنها طلع علينا فى أثناء الحرب العالمية الاولى بالنداءات التى تحث على وضع السلاح وتصر على الدعوة الى السلام ، حتى أخذت الصحافة الوطنية فى فرنسا تثير عليه الرأى العام ، ولكنه آثر أن يصاب فى سمعته عند أهل وطنه على أن ينزل قيد شعرة عن انسانيته ٠

وهذا « بول بورجيه » الذى عاش شبابه فى أيام الرخاء المادى فى عهد نابليون الثالث فظل بعد سقوط وقيام الجمهورية الفرنسية الثالثة مؤمنا فى السياسة بالحكم المطلق وفى الدين بسلطة رجال الكنيسة حتى آخر يوم من حياته التى امتدت قريبا من منتصف القرن العشرين ٠ ولقد طغت على فن بول بورجيه فى شعره ورواياته ونقده ظاهرة التحليل النفسى التى اتخذها لاظهار غلبة الغرائز الاولى وخاصة الغريزة الجنسية على أبناء المجتمع وبناته وهو بذلك يؤيد من طرف خفى رأيه فى الحاجة الى الحكم المطلق وسلطة الكنيسة ٠

وعلى خلافه « اندريه جيد » الذى يتزعم مدرسة التحرير الاخلاقى فى الادب الحديث الفرنسى متعمدا الصراحة الجزئية فى معالجة الازمات النفسية والمشاكل

الخلقية التى يتهيبها وينفر منها أهل السمت والاعتدال والتزام ما جرى عليه العرف من احترام التقاليد ولكن « جيد » بحكم نشأته فى أسرة متدينة متقشفة كان فى انطلاقه سواء فى حيـــاته أو مؤلفاته لايزال موصول الأسباب بحيـاة الصومعة يجمع بين قيودها وشرود الصعلكة •

وهذا «هنرى دو مونترلان» الذى خاض غمار الحرب العالمية الأولى وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة وخرج منها مثخنا بالجراح الجسدية والنفسية ، فدفعته عزة النفس الى الولع بالألعاب الرياضية لترد له حيوية الشباب وترتفع بروحه المعنوية فتحقق له بهما قوة الشخصية التى تستغنى بنفسها عن غيرها كالنســـاء والمجتمع ومعـاندة الدهر وخيبة الأمل فى الحيـاة •• وعلى هذا الارتفاع بالشـخصية المسـتقلة بذاتها يقوم بنيـان قصصه كالعزاب والفتيات وغيرهما وترتكز دعائم مسرحه كالملكة الميتة وسيد سنتياجو وغيرهما •

وعلى خلاف قصص هذا الكاتب الفرنسى ومسرحه ، كاتب ايطاليا المعاصر «لويجى بيرانديللو» الذى لم يلتفت له العالم الغربى حق الالتفات الا عام ١٩١٧ من أجل مسرحيته التى نشرها وهو فى ســن الأربعين بعنوان « انت على حق اذا رأيت أنك على حق » ثم بعـــدها مسرحية «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» عام ١٩٢١ وكلاهما يحمل طابع خياله المتفنن الســـاخر الذى من أجله نال جائزة نوبل عـــام ١٩٣٤ فليس فى مسرح بيرانديللو شيء من التفاؤل الذى يصاحب الارتفـــاع بالشخصية بل هو على الضد من ذلك مسرح متشائم يقوم على التناقض الكامن فى كل انسان بين حيوانيته أى شخصيته الطبيعيـة بغرائزها وشهواتهـــا ، وبين انسانيته أى شخصيته الاجتماعية التى تقتضيه التزام المصطلحات الاجتمـاعية فى مظـــاهر السلوك الخلقى وسائر التصرفات العملية وهذه هى مأساة الانســـان المضحكة او بعبارة أخرى مهزلته المحزنة •

هؤلاء الكتاب الاعلام على اتساع شقة الخلاف بين

منازع شعورهم واتجاه تفكيرهم وأساليب تعبيرهم قد اجتمعوا بين دفتي هـذا الـكتاب حيث نال كل منهم على يد واضع الكتاب ما يتسع له الحيز ويسمح به المجال من التعريف الوافي على الرغم من ايجازه •

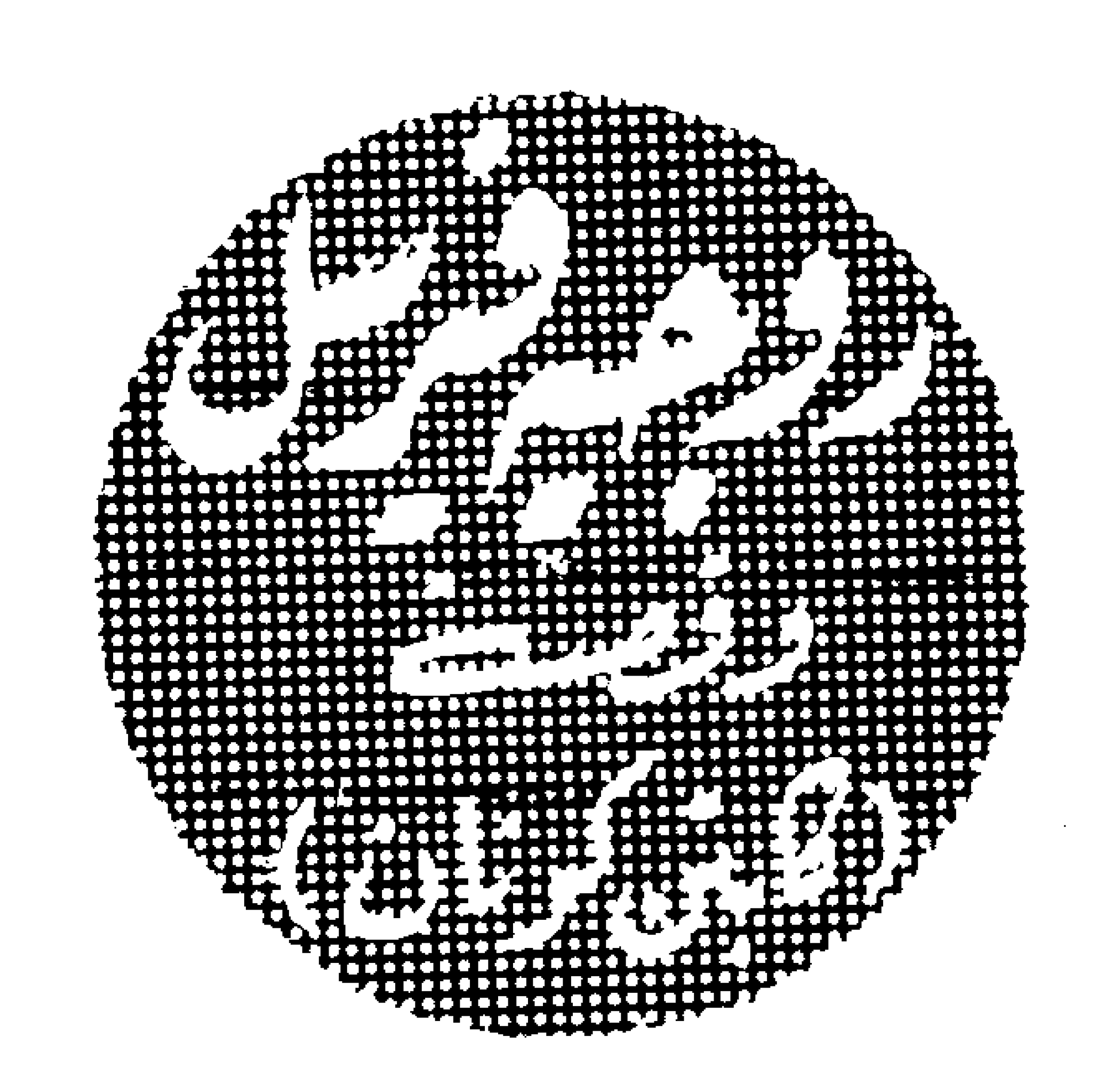
وقد كنا نود لو أن الاستاذ على كامل أتبع كل فصل من فصول الترجمة والدراسة النقدية لهذا وذاك من اعلام الكتاب الاوربيين بمختارات يسيرة من كتاباتهم حتى يتسنى للقارىء الذى لا يحيط بمؤلفاتهم فى لغتها الاجنبيـة ولا يجد الغنـاء فى المنقول الى اللغة العربية تملته ، ان يلقى بعض الشواهد الحاضرة يرجع اليها للاستدلال بطريقة مباشرة على ما جاء فى هذه الدراسات النقدية من تحليل لهؤلاء الادباء الفنانين الاعلام ، ومحاولة لاظهار ما بينهم من الفروق فى الاتجاهات الفكرية والملامح النفسية والخصائص الفنيـة ، فليس شىء أبلغ اقنـاعا من الرجوع الى النصوص ، فضلا على متعة الاستماع الى رجع أصواتهم فى مختلف الاحاديث من أفواههم •

بيد اننا نعود فنقول مخلصين : اننا كنا نود هذا أول ماتصفحنا الكتاب ، فلما مضينا فى قراءته وانعام النظر فيه ، اذ فى منهج الكتاب خير شفيع • فهو فى منهج فصوله يجرى على مطالعة قرائه بصورة تحليلية واضحة المعالم ناطقة الاسارير لكل من الاعـلام الذين تناولهم قلمه ، مصحوبة بترجمة موجزة لحياته تعتمد على التفاصيل التى تساعد على فهم شخصيته كما هى ماثلة مشهودة فى صورته ثم لاتكاد ترد اشـارة الى تصانيفه ومؤلفاته الا جاء ذلك مقترنا بتلخيص اوضوعها ينفذ فى كثير من الاحيان الى لبابها •

وقبل أن ندع الكتاب بين يدى القارىء ليحكم حكمه، نود أن نزيد على ما قدمناه فى أمر الكتاب ان أسلوبه مشرق وسياقه ممتع مشوق •

عبد الرحمن صدقى





فى عـــام ١٩٣٤ فاز الكاتب الفرنسى روجيه فيرسل بجائزة جونكور وهى أكبر الجوائز الادبية الفرنســية عن قصته (كابتن كونان) Capitaine Conan لما جاء به فى هذه القصة من فكرة جديدة عن الحرب ونفسية المحاربين وما ستثيره المجازر البشرية فى نفوس المقاتلين من غرائز الانســانية الاولى التى تبقى فى الكثيرين منهم حتى بعد أن تضع الحرب أوزارها فتفســد عليهم حياتهم وتحرمهم الاستقرار الذى كانوا يأملون فيه بمجرد عودة السلام ·

وقصة (كابتن كونان) هى ثمرة التجربة الشخصية لمؤلفها اذ لم يكد يمضى عام على التحاقه بكلية الآداب بمدينة (كان) حتى شبت الحرب العظمى الاولى وكان فى العشرين من عمره فانتزعته من أحضان كتبه وأساتذته فحارب فى كثير من الميادين الحربية فى فرنسا ثم أوفدته السلطات العليا الى عدد من بلدان أوربا الشرقية للقيام ببعض المهام ·· فرأى اليونان وصربيا وبلغاريا ورومانيا ·· واستفاد من ذلك أجل الفائدة ·· اذ عرف أمما تختلف عن وطنه فى كثير من النواحى وفهم نفسيات شعوبها وأخلاق أهلها وكان ذلك أكبر عون له على رسم كثير من شخصيات قصصه ·· وفكرة قصته (كابتن كونان) التى نال عليهــا الجائزة انمــا انبعثت فى نفســه حين كان يعمل مقررا لمجلس الحرب فى صوفيا ·

ابتدأ فيرسل يخوض غمار الادب برسالته القيمة (صور فى أعمال كورنى) التى نال بها ليسانس الاداب وبعد ذلك نشر كتابه (معجم صور كورنى وراسين) وبعد ذلك الكتاب ظهرت قصــته الأولى (الاب تراجان) وتلتها قصة (الشرود) ثم (سيد الحلم) وفى عام ١٩٣٤ ظهرت قصة (كابتن كونان) التى نحن بصددها ·

وروجيه فيرسيل يهيم بالقوة والارادة الجبارة والشجاعة الخارقة التى نراها واضحة جلية فى كثير من رجال الجيش وبحارة السفن والصيادين المخاطرين ·· وهو يرى ان غرائزنا الوراثية الاولى التى تدفعنا الى احتقار الحياة والاستهانة بالموت والغرام بالنزال والقتال تلك الغرائز التى يظن الكثير انها ماتت بتطور الانسان ، لا تزال كامنة فينا ، وسرعان ما تطغى على شخصيات الكثير منا عندما تمهد الفرصة المنــاسبة لظهورها كالحرب مثــلا التى هى أكبر عامل فى

اظهار هـذه الغرائز الاولى ··· وفى قصة (كابتن كونان) يرسم لنـا فيرسـل صـورا من أولئك الابطال الذين يحملون أرواحهم على أكفهم مستهدفين للمهالك غير عابئين بالموت ·· واليهم يرجع كل فضل فى الفوز والانتصار ··

و (كونان) بطل القصة رجل صغير الجسم ·· هادىء الطبع لين الجانب كان يشتغل بائعا صغيرا فى سان مالو · ولم تكد تشب الحرب عام ١٩١٤ ويتطوع فيها فى جيش الشرق حتى تستيقظ فيه بطولة كانت خامدة تسوقه الى مراتب الرقى السريع فنراه على رأس فصيلة صغيرة فى الجيش نفخ فيها من روحه وبسالته. حتى استيقظت فى أفرادها الغرائز التى استيقظت فيه·· غرائز الانسان الاول الذى لا يعرف للحياة قيمة ولا رهبة ، فينساقون وراء رئيسهم (كونان) الى شتى ضروب المهالك دون خوف ولا وجل ·

لقد تجردوا من كل صفات الجنود النظاميين وأصبحوا أشبه مايكونون برؤساء العصابات لا يعرفون لهم قانونا الا الشجاعة الخارقة التى يجب أن تذوب أمامها كل عقبة تحول بينهم وبين تحقيق ما يرغبون · فبينما نرى فى كثير من الاحيان ان سائر فصائل الجيش ينقصها الزاد والماء نرى هذه الضروريات فى فصيلة الكابتن كونان دائما كاملة موفورة بل زائدة عن حاجتهم ·· وبينما نرى سائر الجنود يرهبون النزال مع العدو وجها لوجه حيث يمزق بعضهم أجساد بعض بحد السيوف أو بأسنة الحراب ·· ويعتبرون ذلكأشد ضروبالقتال هولا ·· نرىالكابتن كونان وأتباعه لا يترددون لحظة فى الهجـوم على خنادق العدو وقد تسلحوا بالقنـابل اليدوية والخناجر معلقة الى جوانبهم يغرسونها فى احشاء أعدائهم دون شفقة ولا رحمة حتى أطلق عليهم اسم (منظفى الخنادق) ذلك ان كلا منهم كما يقولرئيسهم (كونان) لا يعرف الا أنه (محارب) وحسب ·· وليس جنديا يخلص للأنظمة العسكرية وتقاليدها كما يفعل سائر الجنود الآخرين ، بل هم ينظرون الى هذه الانظمـة والتقاليد العسـكرية نظرة الاستهتار بها والاحتقار لأثرها فى الانتصار ·· واننا لنستطيع أن نفسر جيدا نفسية أولئك (المحاربين) حين نقرأ كلام (كونان) الى أحد رفاقه الذى يلومه على تصرفاته هو وزملاؤه قائلا :

(حاول قليلا أيها العجوز المسكين أن تفهم) ··

فيجيبه كونان :

(أفهم ! أتظن اننى لا أفهم لأننى أتكلم بصوت عال ؟ اننى أعرف جيدا أنهم كانوا يخجلون من أعمالنا٠٠ وكانوا لا يعرفون كيف يتخلصون منا ٠٠ اننى أنا وشبانى الذين خضنا غمـار الحرب ، ونحن الذين يرجع الينا كل فضل في الانتصار ٠٠ أنا ومن يماثلنى من الاعوان الذين أرعبنا الجيوش ٠٠ أسامع أنت ؟ الجيوش التى كانت ترانا فى كل مكان ٠٠ وكانت لا تحسب لغيرنا حسـابا ٠٠ ولا ترهب سوانا منذ اندلعت أول شرارة ٠٠ ان قتل جندى أمر فى استطاعة كل فرد أن يقوم به أما مهمتنا نحن فكانت قتل ذلك الجندى بطريقة تلقى الفزع فى أدمغة عشرة آلاف آخرين ٠٠ لذا كان من اللازم الذهاب لملقاء العدو بالخناجر ٠٠ أفاهم انت ؟ ان الخنجر هو الذى كسب الحرب وليس المدفع ٠٠ ان ذلك النوع من الرجال الذى أحدثك عنه لا يزيد على ثلاثة آلاف فى كل جبهات القتال ٠٠ على أن هؤلاء هم المنتصرون وحدهم ٠٠ هم المنتصرون الحقيقيون ٠)

والقارىء لا يستطيع أن يتمالك نفسه من الأسى والتأثر أمام الخاتمة المحزنة التى تنتهى بها مأساة تلك الشخصيات الغريبة ٠٠ فقد مضت سنوات الحرب الأربع واذا (كونان) بطل مقدام فائز بوسام الشرف ، تحلى صدره نياشين المجـد والفخار ، على أنه لا تكاد تعقد الهدنة العـامة وينطفىء جحيم المجزرة البشرية الكبرى وتوزن الاعمال بميزان أقرب الى العدل والمنطق حتى نرى الذين كانوا يعتبرون بالأمس أبطالا صناديد والذين ببسالتهم النادرة واراقة دمائهم دون حساب ضمنوا لجيشهم الفوز مرارا فى ساحة الوغى .. نراهم اليوم وقد أضحى الجميع يعتبرون عملهم جريمة لا تغتفر ٠٠ وينظر اليهم مجلس الحرب نفسه نظرة الخارجين على القانون المنتهكين لحرمة الشرف العسكرى ٠٠

وبانتهاء الحرب ينصرف الجنود جميعا الى بلادهم وذويهم متنفسين الصعداء بعد أعوام شديدة المرارة من العذاب والشقاء ٠٠ الا أن هـذه الظاهرة العادية لانجدها عند الكابتن كونان ورفاقه ٠٠ اذ يصور لنا روجيه فيرسل كيف عاد كونان الى مســقط رأسه يعمل كما كان تاجرا بسيطا كسير القلب محطم النفس ٠٠ غير راض عن حالة السلم والهدوء ، غير مرتاح الى العيش فى مجتمع لا يناسب ميوله وغرائزه التى بعثتها الحرب من مرقدها وأصبح لا يجد الى التخلص منها سبيلا ٠

ويتزوج كونان ٠٠ ثم تمضى الايام فاذا الحياة الهادئة الوادعة لا

تناسبه فيترهل جسده وتنتفخ أوداجه ٠٠ ويضنيه مرض الكبد وكلما تقدمت به السن شعر بأنه فقد كل شيء ٠٠ وضاق بالحياة كلها ذرعا ٠٠

أن روجيه فيرسل يجمع فى قصته فكرتين :

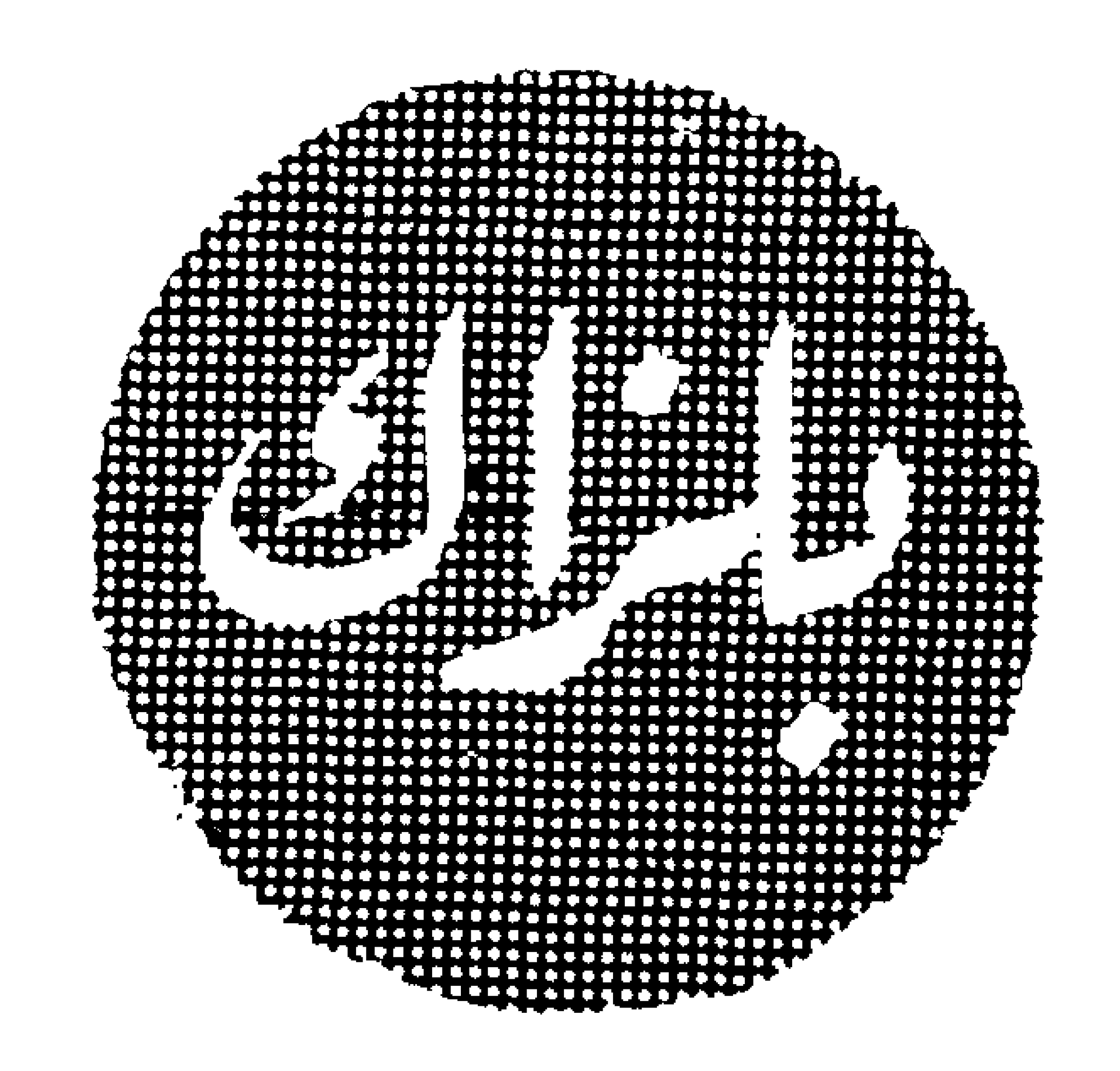
أولاهما الاعجاب بأولئك الابطال والرثاء لهم ٠٠

وثانيتهما الدعوة ضد الحرب ٠

فهو لا يبرر الحرب التى توقظ فى هذا النوع من الناس بطولنهم الراقدة تحت وعيهم ٠٠ بل هو بالعكس يريد أن يبين لنا ان (الحرب هى الشر الاعظم) كما يقول ٠٠ أليست هذه الشخصيات التى يصورها لنا خير تصوير كأبطال الحـــرب الحقيقيين ٠٠ هم كذلك أولى ضحاياها ؟ أليست شجاعتهم الخارقة تجعلهم أول وقود لسعيرها الجهنمى ؟ ثم أيضا ذلك النفر منهم الذى ينقذه الحظ الحسن من الموت فى ميدان القتال ٠٠ ألم نتحطم سعادته وتشقى حياته كما رأينا فى كونان ٠٠ ذلك التاجرالبسيط الوديع الهادىء العيش الذى أصـبح بعد أربعة أعوام من المذابح البشرية رجلا أجدر أن يوضع فى عداد المرضى حين لا يستطيع الحيـاة فى مجتمع خلو من القتل وسفك الدماء ؟

تلك هى ميزة قصة (كابتن كونان) الكبرى ، فلقد كتب عن الحرب الكبرى الاولى عدد كبير من الكتب الرائعة ربما كان أعظمها كتاب جورج دوهامل (مدنية) Civilisation و(حياة الشهداء) Vie des martyrs وكتاب رولان دورجيليه (الصـــلبان الخشـــبية) Croix de bois وكتاب هنرى باريـــوس (النـــــار) Le feu الذى نال جائزة جنــكور عـــــام ١٩١٧ وهذه الكتب قد تفوق قصة (كابتن كونان) فى كثير من النواحى الا أن روجيه فيرسل يمتاز فى قصـــــته بأنه عالج موضـــوعا ورسـم نوعا من الشخصيات الانسانية بطريقة لم يسبقه اليها غيره من الكتاب ٠




بالزاک

كانت والدة بلزاك تصغر اباه باثنين وثلاثين عاما ، ولم يكن زواجها منه عن حب ، بل كان نتيجة ارغام من جانب أسرتها التى رأت فى مركز برنار فرانسوا بلزاك ما يشجع على قبول هذا الزواج .. كانت عصبية المزاج، حادة الطبع، تسىء معاملة ابنها أونوريه.. ولم ينس أونوريه، حتى بعد أن شب عن الطوق وأصبح رجلا وكاتبا تطبق شهرته الآفاق ، اساءات والدته اليه .. فقد كتب فى أحد خطاباته الى آخر عشيقاته وزوجته فيما بعد مدام دوهانسكا يقول :

« آه لو عرفت أى نوع من النســـاء والدتى ، انها الرعب والهول مجتمعين ، انها الآن فى سبيل القضـــاء على شقيقتى بعد أن قضت على جدتى .. انهـا تكرهنى ، تكرهنى حتى قبل مولدى .. ان والدتى هى سبب كل ما حل بى من مآسى الحياة » .

ولقد كانت هذه الحياة العائلية الشاذة سببا فى أن يكرر بلزاك فى كثير من المناسبات أنه « قاسى أفظع طفولة رآها انسان على الأرض » ولا شك ان هذه الطفولة المعذبة قد اشتركت فى توجيه مستقبل حياته فيما بعد .

لم يكن بلزاك فى حياته المدرســـية مجدا .. وكان كثيرا ما يشرد بفكره فى أثناء الدرس مبديا عدم الاهتمام بما يلقيه أساتذته من الدروس وقد نسب هو ذلك فيما بعد الى أن امتلاء ذهنه بالأفكار جعله يرى فيما يلقى عليه أقل من المستوى الذى يتطلبه ذكاؤه وطموحه واطلاعه ، ذلك الاطلاع الذى انكب عليه كوســـيلة للعزاء فى البداية .. قبل أن يكون وسيلة للتثقيف .

وظل بلزاك طول حياته الدراسية محروما من العطف العائلى حتى بلغ العشرين وحصل على أجازة الحقوق ، ولـكنه بدلا من أن يسير فى الطريق الذى أهلته له دراسته وكما تبغى أسرته استيقظت فيه فجأة الرغبة فى مزاولة حرفة الأدب .. واستطاع أن يقنع أسرته بعد كفاح مستميت أن تمده بمبلغ من المال للذهاب الى باريس ليجرب حظه مدة معينة لا تزيد على سنتين اذا فشل بعدها عاد الى موطن الاسرة ليزاول الحياة التى أهلتها له دراسته القانونية .

ورحل بلزاك الى باريس ٠٠ وأقام فى رقم ٩ شارع ليديجويير فى غرفة فى سطح المنزل ، غرفة صغيرة تعافها النفس ٠٠ اختارتها له والدته بنفسها خصيصا لتبغض اليه الحياة التى يطمع فيها ٠

بيد ان بلزاك احتمل حياته الجديدة بعزم وعناد ٠٠ فكان ينظف الغرفة بنفسه ويذهب لشراء الطعام الرخيص كل يوم حتى يوفر ما تكلفه اياه المطاعم ٠٠ حتى الماء كان يذهب لاحضاره من نافورة سان ميشيل كى لا يتكلف ثمن شرائه ٠٠ ولم يكن كل ذلك ليثبط من عزيمته وكان يتعزى عن شقائه بالتطلع من نافذة غرفته الصغيرة الى أضواء باريس متأملا سحرها حالما بذلك المجد الادبى الذى يصبو اليه ليكون اسمه علما بين كتاب تلك المدينة التى أضاءت سماءها أسماء أعاظم رجال الأدب والفكر فى مختلف العصور ٠

فاذا ما أراد بلزاك أن يخرج من سجن غرفته ذهب الى الاحياء الشعبية يتأمل ساكنيها ويدرس نواحى الحياة بين أرجائها ٠٠ وكان لا يجد غضاضة أو غرابة فى أثنـاء تجواله اذ كانت ملابسـه كما يقول لا تسترعى اليه الأنظار لانها لا تفترق فى بساطتها عن ملابس العمال والبسطاء من ساكنى تلك الاحياء فوق أن مشاعره كانت تتجاوب مع مشـاعرهم ٠٠ فيرثى لضروب تعاستهم متضامنا واياهم فى سخطهم على رؤسائهم الذين يستبدون بهم ويرهقونهم فى مقابل لقمة العيش ٠٠ ولقد كانت هذه الفترة من حياة بلزاك حاسمة فى تحديد تفـكيره وادراكه لنفسية الطبقـات الكادحة وما يختزن فيها من مواهب اذا اكتشفت وأحسن توجيهها أخرجت للنور الكتاب والمخترعين والفنانين وسـائر القـادة فى مختلف ضروب الفكر الانسانى ٠

وانقضى شهران دون أن يعرف بلزاك ماذا يكتب وقد تكدست فى ذهنه المشروعات المختلفة ٠٠ وأخيرا استقر رأيه على كتابة مأساة شعرية بعنوان (كروموبل) فبدأ توا فى كتابتها وكان يريد أن ينتهى منهـا سريعا قبل أن تجىء اليه والدته لتحاسبه على ما أعطته من نقود وعلى ما اذا كان قد استطاع أن يوفى بوعده فى أن يصبح أديبا ٠ وانهمك بلزاك فى الكتابة وحيدا فى غرفته ٠٠ لا يغادرها الا مرة كل بضعة أيام حتى انتهى منها ٠٠ وحمل بلزاك مأسـاته الى أسرته واتفق الجميع على عرضـها على صديق للاسرة ملم بأصـول الادب والنقد ٠٠ وبعـد أن قرأها أبدى رأيه بعدم صلاحيتها ولم يحاول بلزاك أن يناقش أو أن يجرح كبرياءه بعرضها على

أشخاص آخرين أو على أحد المسارح فالقى بها فى زاوية مكتبه ولم يخرجها من مكانها حتى مماته ..

على ان هذه المسرحية .. برغم فشلها .. قد أنالته شيئا من الثقة من جانب والدته فى أن يكون يوما من الايام أديبا يلمع اسمه بين رجال الادب فى فرنسا ..

لم ييأس بلزاك من عدم نجاحه فى عمله الادبى الاول .. وكان ايمانه بنفسه كافيا لأن يدفعه ليواصل صراعه .. لكن المشكلة الكبرى التى أمامه الآن هى ان المال الذى منحته اياه أسرته يوشك أن ينفد ولذا يجب أن يجد طريقة للحصول عليه حتى يستطيع أن يبقى فى باريس ويواصل هذا الصراع .. وأخيرا اتفق مع أحد أصدقائه ويدعى أوجست لو بواتفان على أن يتعاونا معا على كتابة قصص يوقعانها باسم مستعار ..

وانتقل بلزاك من غرفته الى المنزل الذى كانت تسكنه شقيقته (لورا) بعد أن هجرته بعد زواجها وجعله مقرا له يكتب فيه القصص المتوالية بمعاونة صديقه أوجست .. ولا شك ان هذه الفترة من حياة بلزاك لا تشرف تاريخه الادبى .. فقد كان يسعى الى كتابة أى نوع من الكتابة سواء كان قصصا أو غيرها ما دام يدر ربحا ماديا .. وكان يلجأ الى اقتباس الموضوعات من أى مصدر يصادفه .. ولقد كان عذره الوحيد أمام ضميره فى ذلك الوقت هو السعى لان يكسب حياته بأى سبيل حتى يستقل عن الحاجة الى معونة أسرته .. وليستطيع البقاء فى باريس تمهيدا لمجده الادبى الذى لم ينزل عن العزم على الوصول اليه .. ولقد أدى هذا التهافت من بلزاك على كسب حياته بأية طريقة الى ألا يتروى فى كتابته فكان يؤجر قلمه لكتابة كل ما يطلب منه فى مقابل أجر معلوم .. ولم يغتفر له مؤرخو حياته فيما بعد ـ وفى مقدمتهم ستيفان زفايج ـ هذه الزلة التى استمر عليها بضعة أعوام برغم سعيه الى تبريرها بمنطقه البليغ وقدرته الفذة فى الاقناع .

على أن أعجوبة بلزاك الكبرى انه برغم هذا الاسفاف الادبى خلال هذه السنوات قد استطاع أن يتطهر منه فيما بعد ، وأن يكون فى أدبه عالى الضمير يتأنق فى فنه ويعيد تصحيح ما كتب بعد ارساله الى المطبعة عدة مرات حتى ضج منه الناشرون الى درجة ان قاضاه بعضهم من أجل ما يتحملون من نفقات نتيجة تصحيحاته وتغييراته التى لا تنتهى .

وبلغ بلزاك الثالثة والعشرين وهو فى أوج كفاحه المضنى بمعاونة

صديقه أوجست فى سبيل التحرر من اعالة أسرته والبقاء فى باريس ·· والى هذه السن لم يكن يعرف عن العلاقات النسائية شـيئا ·· فقد كان شـديد الخجل ·· مهمل الهنـدام ·· لا يجذب اليـه نظر الجنس الآخر لبدانته وبعده عن كل جاذبية وانطوائه على نفسه ·· ولطالما شعر بالالم عندما كان يرى شبانا فى عمره يعتبرهم أقل منه ذكاء وشأنا فى صحبة فتيات جميلات لا يستطيع هو أن يصل الى معرفتهن ·· وفى ذات يوم هيأت له الظروف رؤية مدام دوبيرنى صديقة عائلته وكانت فى عمر والدته اذ كانت فى الخامسة والاربعين على حين هو فى الثالثة والعشرين ·· فوقع فى غرامها وظل يمطرها بخطاباته الملتهبة ·· وبرغم صدها له فى البداية فقد انتهى الامر بها الى الاستسلام والسماح له بلقائها ذات ليلة فى منزلها فتحقق له حلمه فى التمتع (بتلك الليلة الصاخبة الممتلئة باللذة ·· تلك الليلة التى لا يستطيع التمتع بهـا الا مرة واحدة ذلك الطفل الذى بلغ مرحلة الرجولة والتى يسعد بها عندما يصادفها لأول مرة فى حياته) ··

ولقد دامت صـداقة بلزاك لمدام دوبيرنى قرابة عشر سـنين ، وحتى بعد هجره لها وانشائه علاقات أخرى مع غيرها ·· فقـد بقى وفيا لذكرى صداقتها يراسلها بين وقت وآخر ويسـترشد بآرائها .. اذ كان يرى أن على يديها وحدها تفتحت امامه ابواب السعادة النفسية وعرف الحب لاول مرة فى حياته وفى وقت بلغ به اليـأس مبلغا جعله يفكر فى ان الموت هو السبيل الوحيد للخلاص من عذابه ..

ولقد كان التفـاوت الكبير بين عمريهما مما سـهل التغلب على سذاجته العاطفية ومشـكلة خجله المرضى .. ألم يكن يتمثل مـدام دوبيرنى أمام ناظريه حين قال كلمته الخالدة :

« ليس الا الحب الاخير للمرأة الذى يسـتطيع أن يرضى الحب الأول للرجل ... »

ولقد رسم هذا الحب الاول لبلزاك طريق ميوله الغـرامية طول حياته ونوع المرأة التى تستطيع فى نظره أن تملأ فراغ قلبـه وتروى ظمأ حواسه الملتهبة المتدفقة .. فالحبيبة النموذجية فى نظر بلزاك هى تلك المرأة التى تخطت الثلاثين والتى تكون منه بمثابة الأم لطفلها المدلل ·· تغمره بعطفها وتحنو عليـه وقت الشدة ··· وتمده بالمعونة الماليـة وقت الحاجة .. هى تلك المرأة الواعية التى ترتفع بتجاربها عن الانانية التى تريد أن تجعل من الرجل وسيلة لاغير ، لتحقيق أطماعها واطفاء لهيب

نزواتها •• هى تلك المرأة التى أوشكت بحكم سنها أن تفقد الأمل فى صداقة جديدة والتى تشعر بالسعادة الحقة اذ أتيحت لها تلك الفرصة النادرة التى تشعرها بأنه لايزال هناك من الرجال من يعجب بها ويرغب فى صداقتها •• وما بطلتا قصتى « المرأة المهجورة » و « المرأة ذات الثلاثين ربيعا » الا صورتان عن بطلات حياته الغرامية اللواتى خلدهن فى قصصه الكثيرة ومنحهن حق التمتع بالحياة برغم العرف السائد فى ذلك الوقت على الخصوص الذى يحرم عليهن بعد هذه السن التمتع بهذا الحق ••

ولقد كانت هذه الصور الخالدة للمرأة التى تخطت الثلاثين فى قصص بلزاك سببا فى أن يخلق حوله طبقة من المعجبات لم يتمتع بها غيره من كتاب القصة فى القرن التاسع عشر .. وفى جو هذه الصور كان بلزاك يبشر بفلسفته الجديدة على لسان ابطاله كقوله :

« ان المرأة ذات الاربعين تعطيك كل شيء .. أما ذات العشرين فلا شيء اطلاقا •• » •

ولقد طبق بلزاك طوال حياته الغرامية هذه العقيدة فكان « شديد الكره للفتيات » لأنهن يأخذن كثيرا ويعطين قليلا .. كما أنه لم يلجأ اطلاقا فى علاقاته الى بائعات الحب او الى ذلك النوع من الغانيات اللعوبات المغرورات.. وما كانت صداقته بعد مدام دوبيرنى كصداقته لدوقة ابرانتيز ومدام ريكامييه ومدام زولما كارو ودوقة كاسترى ثم أخيرا مدام دوهانسكا الا تطبيقا لتلك العقيدة التى كونها لنفسه على ضوء حبه لمدام دوبيرنى وهو أن تكون المرأة له أما وشقيقة وصديقة وعشيقة فى وقت واحد .. يلوذ بها أيام المحن والكوارث فتغمره بتشجيعها وسلواها وتهرع اليه فى ليالى الشقاء كما كانت تفعل مدام دوبيرنى التى كانت « تأتى اليه كل يوم كما يأتى النوم الكريم يسكن وقر الآلام » •

بقى بلزاك حتى الثلاثين من عمره يكافح بعناد دون أن يخرج عملا أدبيا ذا قيمة الى أن أصدر أول قصة طويلة له « التعويذة » La peau de chagrin فكانت فتحا جديدا فى الفن القصصى من حيث قوة التحليل ودقة الوصف وكان نجاحها بداية فجر مشرق .. فمنذ ذلك الوقت رسم بلزاك لنفسه هدفا رئيسيا لموضوعات قصصه وهى ان تكون دراسة للمجتمع بجميع نواحيه يختلط فيها كل من الغنى والفقر ، السعادة والشقاء ، الطبقة العليا والطبقة السفلى ، قوة

المال وضعفه ، وبالاختصار كل ما يعج به المجتمع من متناقضات .. ذلك أن بلزاك كان يعتبر أن هذه المتناقضات أشبه ما تكون بالعناصر الكيمائية التى يتوقف كل منهما على الآخر ٠٠ فثراء طائفة من الناس سببه فقر الآخرين ٠٠ والفقر المميت لا ينتج الا لأن البعض قد استحوذ على معظم الثروات .. وسعادة البعض كثيرا ما تكون على حساب تعاسة الآخرين وهكذا .. ولقد كانت حياة بلزاك الخاصة فى باريس وما عركه بنفسه بين مختلف طبقاتها هو المصباح الذى أرشده الى حقائق المجتمع الانسانى فى عصره ٠٠ وما قصصه (الاوهام الضائعة) و (لوى لامبير) و (سيزار بيروتو) و (الأب جوريو) و (أوجينى جرانديه) وغيرها الا ثمرة دراساته الشخصية وحياته العاصفة التى جعلت منه الأديب المؤرخ والمصور الصادق والطبيب البارع للمجتمع الباريسى الصاخب والمجتمع الانسانى بوجه عام ..

ولقد استطاع بازاك خلال هذا الكفاح العنيف فى سبيل تأدية رسالته وفى سبيل « ان يحقق بقلمه ما حققه نابليون بحسامه » كما قال ، أن يكتب فى مدة عشرين عاما ــ عدا المسرحيات والمقالات والقصص القصيرة ــ اربعا وستين قصة طويلة وان يخلق فى هذه القصص ألفى شخصية انسانية ، كل منها نموذج قائم بذاته للطبيعة البشرية بفضائلها ورذائلها ، محققا بذاك حلمه فى أن يرسم صور المجتمع الانسانى بجميع ألوانه وطبقاته فى قالب قصصى فى سلسلة اطلق عليها فيما بعد ذاك العنوان الخالد على الدهر « المهزلة الانسانية » .

ولقد ارتفع بازاك بانتاجه الادبى الى ان يكون كما كان يتمنى « على رأس الحياة الادبية فى اوربا » وأن يكون « خليفة بيرون ووالتر سكوت وهوفمان » .. والواقع ان بلزاك قد فاق الأدباء الذين كان يتخذهم فى شبابه مثلا أعلى له .. فقصة « لوى لامبير » التىتعتبر أعمق واقوى ما كتب كانت بمثابة فتح جديد فى الفكر الأوربى عندما كشفت العلاقة الخفية بين العبقرية والجنون قبل ان يكتشفها علماء النفس فى اوائل القرن العشرين بعشرات السنين .. ولقد كان بلزاك يريد ان ينافس بقصته « لوى لامبير » قصة « فاوست » للكاتب الالمانى جوت .. وبرغم انه وصل الى ما يبغى الا أننا ندهش حين نعلم ان بازاك كتب قصته فى ستة اسابيع فى حين لم يفرغ جوت من كتابة «فاوست» الا بعد ستين عاما من بدئه فيها ..

واذا كان بلزاك لم يحقق كل حلمه ولم يتم برنامجه الى آخره

فقد حقق معظمه وكتب أربعة أخماس « المهزلة الانسانية » قبل ان يعاجله الموت فى الثانية والخمسين · بيد أن بلزاك قد دفع الثمن غاليا من صحته التى أنهكها السهر الطويل المضنى .. ولعل العجب يتولى كل من يعرف طريقته فى العمل التى تفوق طاقة البشر .. اذ كان يقضى فى كثير من الأحيان أسبوعين أو ثلاثة أسابيع لا يغادر فى أثنائها شقته الصغيرة فى شارع كاسينى .. وكان يبدأ الكتابة عند منتصف الليل حتى اذا ما طلع الصباح تناول افطاره ثم شرع فى تصحيح النماذج التى ترسلها اليه المطبعة فيغير وينمق وكثيرا ما يعيد كتابة صفحات بأكملها .. فاذا ما حل المساء لجأ الى سرير نومه حتى منتصف الليل ليستيقظ ويواصل الكتابة .. ولقد ذكر طبيبه وصديقه الدكتور ناكار أن سبب موته يرجع الى أن قلبه كان متعبا بسبب الارهاق فى العمل والمبالغة فى شرب القهوة ليستعين بها على مقاومة النوم .. ولقد أحصى أحد المقربين اليه عدد فناجين القهوة التى احتساها فى حياته فبلغ خمسين الف فنجان ..

ولقد كان موت بلزاك مأساة أخرى تختتم بها مآسى طفولته المعذبة وكفاحه الفكرى العنيد .. كان منذ سنوات قد وقع فى غرام مدام دوهانسكا .. وكانت سيدة روسية غنية متعجرفة تتعالى عليه وتعتز بأصلها الارستقراطى وتجعل من صداقتها له ملهاة لغرورها وكان بلزاك لسوء حظه ضعيفا مع النساء .. شديد الاحساس بالنقص تجاه كل سيدة رفيعة المقام .. وبسبب هذا الاحساس تضخمت فى ذهنه فكرة الزواج من مدام دوهانسكا لما سيناله بزواجها من شرف ومال فيحقق بذلك حلمه القديم فى الحصول على « امرأة وثروة » تستقر بها حياته المضطربة ليتفرغ بعد ذلك فى هدوء لاتمام رسالته الادبية الضخمة..

وكان زوج مدام دوهانسكا عندما تعرف عليها بلزاك لايزال على قيد الحياة .. فظل بلزاك صبورا على علاقته بها سنوات حتى مات زوجها وحانت بذلك فرصة الزواج .. الا ان مدام دوهانسكا كانت تسوف فى وعدها ·· مختلقة الأعذار دون أن تقطع علاقتها بالكاتب الكبير الذى كانت رفعة مكانته الأدبية فى اوربا بأسرها تضفى على من تصادق رجلا مثله هالة من الرفعة والمكانة ..

وكانت صحة بلزاك قد أخذت فى الانهيار وأجمع الاطباء على أن حالة القلب لديه لا تسمح له بحياة طويلة ·· عندئذ ·· وعندئذ فقط وافقت مدام دوهانسكا على أن تحقق للرجل الذى صبر السنين الطوال

وعفر وجهه فى الثرى تحت قدميهـــا لينـــال الأمنية الكبرى التى يجيش بها صدره .. فما الذى تفقده بهذا الزواج وقد أجمع الاطباء أنه لم يبق له فى الحياة الا شهور معدودة ..

وسافر بلزاك الى روسيا برغم اعتلاله ليعقد أخيرا زواجه فى مارس عام ١٨٥٠ فى هدوء وصمت تحقيقا لرغبـة مدام دوهانسكا التى كانت تعتقد أن فى هذا الزواج انتقاصا من مقامها .. ولهذا كتب العقد بغير احتفال ولم يشعر به احد ولم يدع اليه انسان وتمت مراسيمه فى الساعه الرابعة صباحا قبل أن يستيقظ النيام من نومهم ..

وفى مايو بدأ الزوجان رحيلهما الى باريس ليقيما فى ذلك البيت الذى ظل بلزاك منذ وقت طويل يعده فى شـــارع فورتونيه بجميع ألوان الترف والنعيم فى انتظار ذلك اليوم الموعود .. وكانت الرحلة شاقة على صحة بلزاك حتى خيف ألا يستطيع أن يتمها سالما ، ذلك انه لم يكد يصل الى درسدن حتى انهارت قواه وتضاءلت قوة ابصاره ولكنه قاوم بقوة ارادته .. فكل ما يأمله الآن هو ان يصل مع مدام دوهانسكا الى منزل شارع فورتونية ليعيش فيه بين ذراعيها ولو بضعة ايام ..

وقبل ان يصل بلزاك الى باريس كان قد ارسل بكل تعليماته الى والدته التى كانت تقوم بكل الترتيبات فى منزله الجـديد .. فطلب منها الا تكون بالمنزل عند وصوله اليه لانه يعلم ان مدام دوهانسـكا لا تريد رؤيتها .. كما طلب ان يكون فرانسوا خادمه الخاص فى أنتظاره امام المنزل بعد ان يضىء جميع انواره .. وعندما وصل الزوجان امام المنزل الموعود لم يجد بلزاك فرانسوا فى انتظاره فظل يطرق الباب دون مجيب .. وانتظرت مدام دوهانســـكا فى العربة حتى اسـتدعى احد المختصين لفتح البـــاب عنوة .. وعندما دخل العروسان وجدا فرانسوا فى احدى الغرف وقد أصابه الجنون فجأة فنقل فى الليلة نفسها الى احدى المصحات ..

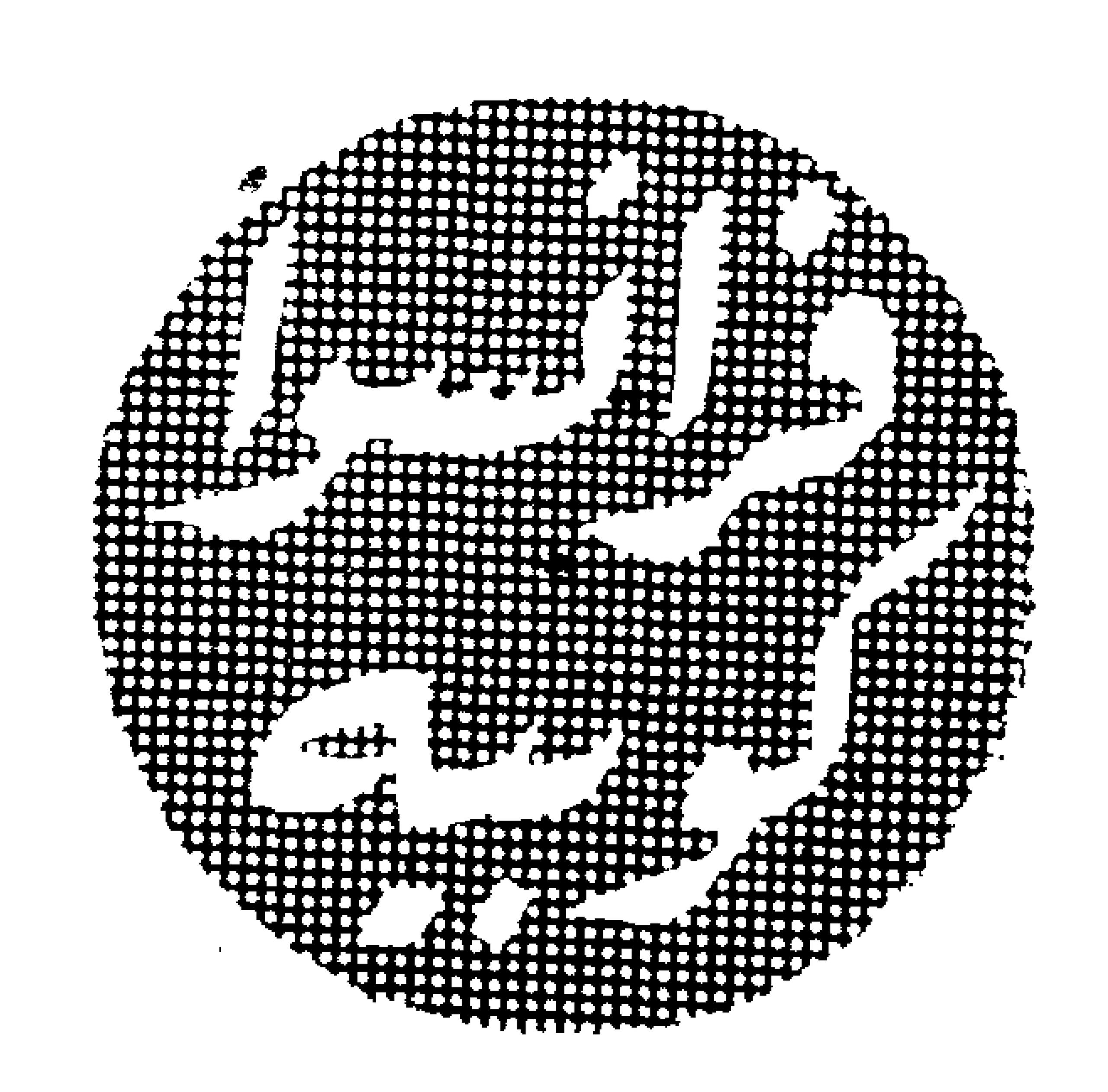
كان حلم بلزاك ان يعيش فى هـذا المنزل خمســة وعشرين عاما يكتب فى أثنائها خمسين كتابا يتم بها قائمة مؤلفاته التى تكون « المهزلة الانسانية » والتى يبلغ مجموعها مائة واربعة واربعين مؤلفا وكان قد اعد لذلك غرفة مكتب فاخرة الى جانب غيرها من الغرف الحافلة بأفخم أنواع الاثاث .. فالى أى مدى تحقق هذا الحلم ؟ لم يخط بلزاك حرفا فى غرفة المكتب الفاخرة.. ولشد ما يبدو ان بلزاك كان يحس بما يخبئه

له المستقبل الغادر فجعل من نفسه ومن احلامه الفاشلة الشخصية الرئيسية لقصته « الاوهام الضائعة » ..

نعم ·· فلقد أراد القدر أن يأتى بلزاك الى هذا المنزل موطن خياله الذى صبر من اجله طويلا .. لتنهار صحته نهائيا بمجرد وصوله ..

فمنذ اليوم الاول لم يعد يقوى على القراءة او الكتابة ولم يلبث ان لزم فراشه لا يستطيع منه حراكا .. وعندما أقبل ملاك الموت فى ليلة ١٧ من اغسطس سنة ١٨٥٠ لم يكن بجواره الا والدته .. فقد كانت زوجته مدام دوهانسكا قد غادرت المنزل قبل ذلك بعدة أسابيع ·

ودفن بلزاك فى مقبرة بير لاشيز ·· تلك المقبرة التى كان يحبها والتى طالما تأمل بطله « راستبناك » من اعلاها الى باريس التى تحدي جبروتها وسطوتها ·· ورسم جمالها وفتنتها ·· وخلد عبقريتها على صفحة الفكر البشرى ليتغنى بها الابناء جيلا بعد جيل ..



كان الشاعر القصصي الفرنسي فرانسوا كوبيه باريسيا صميما جعل من المدينة العظيمة المصدر الدائم لفنه وادبه ، يجوب أرجاءها المختلفة ويدور بناظريه في أحيائها يدرس بعين الفنان البارع مظاهر السعادة والشقاء ،الغنى والفاقة .. ويستمتع بطبيعة باريس الساحرة ومناظرها الجميلة .. ثم يعود الى منزله المتواضع وقد امتلأ قلبه الحساس بشتى العواطف المتضاربة فيسكبها في شعره وقصصه بأسلوب يسيل رقة وحنانا .. فكوبيه من هذه الناحية يمتاز عن كثير من الكتاب الفرنسيين الذين لم يفهموا باريس حق الفهم ولم يخصصوا ادبهم لوصف الحياة فيها من نعيم وشقاء كما فعل كوبيه . ولعل السبب في ذلك هو أن معظم الكتاب الفرنسيين ليسوا باريسيين صميمين ككوبيه الذي ولد ونشأ ومات فيها ..

على أن هناك ناحية أخرى يمتاز بها كوبيه عن غيره من الشعراء والكتاب الفرنسيين وهو ما دعا النقاد لان يلقبوه « شاعر المساكين » لان كل كتاباته تفيض بالرحمة والرثاء للفقراء والبائسين ولقد أحسن وصفه بول بورجيه بقوله عنه حين وفاته ..

« انك لتشعر عند قراءة مقطوعة من شعره أو قصة من قصصه انه ليس كغيره من الكتاب ... كاتبا يكتب لقراء بل صديقا يكتب لأصدقائه .. فدقة الاحساس وطيبة القلب والامانة الصادقة في الوصف، سواء في شعره أو نثره ، والاشمئزاز الطبيعي فيه لكل تكلف أو دجل أو ادعاء هي أظهر ما يميز فنه » .

ولد كوبيه عام ١٨٤٢ وكان منذ صغره معتل الصحة ذاوي اللون .. وكان ابوه موظفا بسيطا في وزارة الحربية وكان مرتبه الضئيل لا يسمح لأسرة كوبيه الا بحياة مقترة بائسة .. ولما شب فرانسوا أرسله والده الى المدرسة فكان يذهب اليها في الصباح ولا يعود منها الا عند المساء فيستذكر دروسه الى جانب والديه وشقيقاته الثلاث.. وعندما بلغ الرابعة عشرة انتقلت الأسرة من منزلها وانتقل كوبيه الى مدرسة سان لوي المجاورة للمنزل .. ولم يكن كوبيه موفقا في حياته المدرسية .. وكان دائم التفكير محبا للعزلة وكانت حديقة لوكسمبرج القريبة

من منزله تفتن نفسه الشاعرة الحالمة وتلهيه بجمال مناظرها مياهها الجارية عن متابعة دروسه ..

وجاءت الظروف القاسية تترى فساعدت على هجره المدرسة لأن والده الذى كان قد احيل الى المعاش منذ عامين اصابه شلل ألزمه الفراش مدة طويلة واصبحت حالة الاسرة المالية من الضيق بما لا يسمح ببقاء كوبيه فى المدرسة .. فأخرج منها واشتغل عند احد المهندسين المعماريين .. وكان يشتغل فى الوقت نفسه نساخا للمقاولين كى يزيد مقدار المال الذى يعين به أسرته ... وكان ينتهز ساعات فراغه ويقضيها فى القراءة المتواصلة حتى أصيبت عيناه بمرض من جراء ذلك ، ولم ينقض وقت طويل حتى عين كوبيه موظفا فى وزارة الحربية التى كان والده موظفا فيها وظل يكد فى سبيل أجر ضئيل تافه ... وعندما بلغ كوبيه العشرين مات والده فزادت أعباؤه وشعر بالمسئولية تثقل كتفيه فكان يتعزى بالقراءة المستمرة وكتابة الشعر والقصص القصيرة والمسرحية وابتدأ بنشر بعض قصصه القصيرة فى احدى المجلات الصغرى .. ولكنها لم تكن لها من الناحية الادبية قيمة تذكر.. وفى ذلك الوقت كانت قد ظهرت فى فرنسا جماعة البرناسيين فانضم كوبيه اليها وأصبح دائم الاجتماع بأعضائها وكانت الجماعة تجتمع يوميا عند الناشر الفونس لومتر وكانت هذه الصداقة بين الناشر وجماعة البرناسيين مما ساعد على نشر مؤلفاتهم عنده فنشر كوبيه عام ١٨٦٦ مجموعته الشعرية الاولى « صندوق المخلفات » Le reliquaire وبعد عام نشر مجموعته الثانية « صداقات » Intimités (*)

وحتى ذلك الوقت لم تتعد شهرة كوبيه دائرة محدودة حتى كان يناير عام ١٨٦٩ اذ أخرجت الممثلة سار برنار قصة «المار» Le passant على مسرح الاديون وهى مهزلة شعرية فأحرزت نجاحا كبيرا وارتفع كوبيه مرة واحدة الى مصاف الكتاب النابغين وأصبح اسمه موضوع أحاديث الاندية الادبية فى فرنسا وغيرها من البلاد الاوربية واعجب به نابليون الثالث امبراطور فرنسا وعرض عليه مرتبا شهريا ولكن كوبيه رفضه مع حاجته القصوى . على ان حالة كوبيه المالية تحسنت قليلا بعد ذلك عندما وظف فى مكتبة مجلس الشيوخ .

وفى عام ١٨٧٢ كتب كوبيه قصة « حب فى أثناء الحصار » وهى أول ما كتب نثرا وكتب ايضا مجموعة قصصه القصيرة الاولى .. ثم ظهرت فى ذلك العام قصة « المساكين » Les humbles التى

بلغ فيها ذروة مجده الأدبى من الناحية الانسانية ثم كتب بمعاونة ارمان دارتوا قصة « حرب المائة عام » وهى مسرحية شعرية ظهر فيها نواحى من البطوله الفرنسية .

وكان اسم كوبيه فى ذلك الوقت يدوى فى كل مكان ففى عام ١٨٧٩ منح وسام اللجيون دونور ..

وفى عام ١٨٨٣ كتب كوبيه قصة « سيفيرو توريللى » فنجحت نجاحا كبيرا وفى العام التالى انتخب عضوا فى الأكاديمى فرانسيز وفى عام ١٨٨٥ استقال كوبيه من عمله فى مكتبة مجلس الشيوخ فى أثر خلاف قام بينه وبين رؤسائه الذين رأوا فى بعض اعماله الادبية من الآراء ما لا يتفق مع عمله الحكومى فسافر الى أملاك صديقه وناشر كتبه الفونس لومتر حيث تمتع بالراحة والهدوء وكتب هناك قصة « اليعقوبيون » التى مثلت علىمسرح الأديون فى شهر نوفمبر من العام نفسه ..

وواصل كوبيه انتاجه الادبى دون انقطاع فكتب عددا كبيرا من القصص القصيره شعرا ونثرا .. وفى عام ١٨٩٥ كتب كوبيه قصته المسرحية « فى سبيل التاج » Pour la couronne وفى عام ١٨٩٦ كتب قصة « الجانى » Le coupable وهى القصة الطويلة الوحيدة التى كتبها .

وكان كوبيه قبل كتابته هذه القصة يعانى ألم المرض المبرح ولم ينجه منه الا عملية جراحية خطيرة وجعل كوبيه من آلامه فى أثناء مرضه موضوعا لاحدى قصصه كعادته فى تصوير فواجع حياته فى أدبه ... فكتب قصة « العذاب العذب » La bonne souffrance .

وقضى كوبيه أعوامه الأخيرة يعانى آلام المرض معتزلا فى منزله البسيط مهد ذكريات حياته الأولى .. وقد أبى أن يفارقه برغم الحاح أصدقائه الى ان مات فيه عام ١٩٠٨ .

كان كوبيه شاعرا أكثر منه ناثرا .. بل ان عبقريته الشعرية كما يقول بول بورجيه .. كانت على حساب نبوغه كناثر .. على ان كوبيه كان واقعيا حتى فى شعره « والذلك كان شعره مع الموسيقى العالية التى تغمره يقرب كثيرا من النثر » .. لأن كوبيه لم يكن يريد الخروج عن دائرة الحقيقة فكان يصور الاشخاص على ما كانوا عليه بلا تنميق

ولا تزويق ٠٠ وكيف يستطيع ذلك وهو فى الواقع لم يكن يكتب الا صدى شعوره الشخصى .. ولم يكن الاشـــخاص الذين يصـــورهم فى شعره أو نثره الا شخصيات اتصل بها عن قرب او عن بعد .. ففهمها حق الفهم وعرف ما يخالجها من مختلف العواطف والنزعات المتضاربة .

والاتجاه الجديد الذى أوجــده كوبيه فى الادب الفرنسى عــامة والشعر خاصة يبدو واضحا فى المجموعتين الاولى والثانية من شعره فلقد بدا فى هاتين المجموعتين شاعرا مطبوعا يريد ان ينزل بالشعر الى رسم سواد الشعب من الطبقتين الوسطى والفقيرة .. وكان يرى ان الطبقات البائسة بفقرها او بما يعتريها من احوال الحياة القاسية احق من غيرها باهتمام الـكاتب والقارىء على السواء ٠٠ ولذلك كانت قطعه الشعرية فى هاتين المجموعتين صورا صادقة بريئة لحياة هذه الطبقات .. فهو لا يصور « الفقراء » وحسب بل « المساكين » عامة بمن فيهم الفقراء وغير الفقراء .. لان الذين يتألمون فى الحيــاة ليســوا الفقراء وحــدهم ٠٠ ــ وان كان ألم الفقــر والجوع هــو شر الآلام ــ بل هنــاك من الناس من قد يكونون سعداء من الناحية المادية ولكن الدنيا لاتعدم من الوسائل ما تنغص به عليهم حياتهم وأمثال هؤلاء كثيرون مثل المرضى والخائبين فى الحب والذين فقدوا آمالهم العظيمة فى الحياة ٠٠ وكذلك الاطفال الصغار فهؤلاء ايضا يملئون جانبا من أدب كوبيــه .. أولئك جميعــا هم من خصص كوبيــه شــعره ووقتــه لشرح آلامهم فنرى ذلك واضحا فى قصيدة « الجدات » وقصيدة « قديسة » التى أهداها الى أمه ٠٠ وفى قصـــيدة « المقعـــد » Le banc وهى قصة حب عنيف بين جندى وخادمة نرى فيها كوبيــه يبلغ الذروة من حيث دقة الوصف وصدق العاطفة ونبل القلب . حتى ان فيكتور هوجو ارسل اليه من أجلها كتابا قال فيه :

« بفضلك أصبح الانسان لا يسخر من الجندى ولا من الخادمة»

كان كوبيه يعشق باريس عشقا جنونيا ويجد الســعادة كلها فى الجلوس على شاطىء السين أو التجوال فى أحياء باريس يسمع بأذنيه صرخات الألم والبلاء المنبعثة من بين جدران البيوت القذرة التى تكون عالما آخر لا يتصل بباريس العابثة الماجنة بصلة .. ولقد أبدع كوبيه فى رسم هذه الصور أيما ابداع فى مجمــوعة الصــور العشر المســماة « جولات وهواجس » Promenades et intérieurs وفى قصيدة «اوليفييه» نراه يصف باريس فى يوم احــد من أيام الشــتاء وقد تجمع النــاس

وخصوصا الفقراء فى حديقة لوكسمبرج يلتمسون من جمالها وسحرها ما يخفف عن قلوبهم الكسيرة عبئها اثقيل ..

وأوليفييه بطل القصيدة شاعر وزع قلبه على كثير من النساء وكان يشترى الحب بالمال ان أعوزه الامر .. ولكنه فى النهـايه شـعر بالملل من تلك الحيـاة التى خسر فيها اكثر ممـا كسب فأزمع الذهاب الى مسقط رأسه ليبعدعن جو باريس الصاخب وينزل على أحد أصدقاء والده وهناك يتعرف بابنة مضيفه وهى فتـاة جميلة عفيفة تدعى سوزان .. فتعجبه الفتاة ويبتدىء يحس نحوها بعاطفة خفية ولكنه لا يلبث أن يشعر بان قلبه أصبح أبعد ما يكون عن أن يتـأثر بالحب العفيف الطاهر وبأن المـاضى الأثيم والحـب الذى يشترى بالمـال قد طبعا قلبـه بطابع لا يمحى .. وان كل ما يشعر به نحو هذه الفتاة هو انها بهيئتها وحركاتها تذكره بالفتاة الساقطة التى كانت تعيش معه تحت سقف باريس .. وعندما شعر الشاعر اوليفييه بان غسل الماضى فوق طاقته يتعزى بكتابة مقطوعات شعرية آية فى الروعة ينفس فيها عن آلامه .. ثم يرحل ثانية الى باريس حزين القلب منكسر الفؤاد .

وقصيدة « أوليفييه » صورة صادقة لـكوبيه نفسه وهى بواقعية فكرتها وصراحة رسمها تجعلها اقرب الى « آلام فرتر » للشاعر الألمانى جوته أو الى اعترافات روسو ..

وكوبيه بشعره العاطفى يسمو الى مصاف اعظم شعراء العاطفة الفرنسيين الا أن بينه وبينهم خلافا ظاهرا .. فهو ليس كموسيه مثلا الذى أمعن فى وصف الحب الشـهوانى الذى يعتمد صـاحبه على المـكر والخديعة من اجل تحقيق اغراضه .. ولا كلامارتين الذى بالغ فى تصوير الحب الطاهر حتى خرج تصويره له اقرب الى الخيال منه الى الحقيقة .. لقد كان كل من موسيه ولامارتين مبالغا فى تصوير ما أراد أما كوبيه فقد كان وسطا بين الاثنين .. كان واقعيا صحيحا .. كان شعره رسما لتلك الصورة اليومية التى يصادفها الشاعر فى حياته ولتلك العواطف التى تجيش فى اعماق نفسه .. ولذلك كان شعره ابعد ما يكون عن التكلف ومحاولة خلق موضوعات لا تتفق مع الحياة الواقعية .. وهو بذلك كثير الشبه بالشاعر الألمانى هنرى هين الذى يتفق معه فى تصويره للآلام .. فالاثنان تغلب عليهما ما يسمى « أنانية الفنان » الذى يأبى أن يشكو ما يعانيـه الا بالقدر الذى يجلب عليـه العطف فلا يتـذلل ولا يحاول ان يظهر أن الآلام على مرارتها قد نالت من اراداته او عزة نفسه

·· وكوبيه يقلد هنرى هين فى ذلك ويكتب مجموعة اغانيه المسماة : « المنفية » L'exilée ومجموعة صغيرة أخرى بعنوان « الشهور » Les mois .

ومجد كوبيه لا يقوم على شعره العاطفى ، شعر الحب وحسب بل ان نبوغه ككاتب قصصى ومسرحى قد مهد له السبيل لخوض غمار الشعر الحماسى والدعوة الى مثل عليا فى الحياة ·· وهو فى هذا الضرب من الشعر تراه أقرب الشعراء الى فيكتور هوجو وفيكونت دوليل ونحن لا نلبث أن نشعر بوطنيته الملتهبة ودعوته الى أسمى الفضائل كما قرأنا له « القبران » التى يزعم فيها ان المجد الحقيقى لا يأتى الا عن طريق الفضيلة والشرف أو « فى سبيل التاج » التى يمجد فيها سيادة الأمة أو « اضراب الحدادين » التى يعيب فيها العنف وينقد نتائجه السيئة ·

ولعل من العجيب ان يبدو فرانسوا كوبيه من خلال شعره الاجتماعى والسياسى كارها للديموقراطية ناقدا لنظامها ، مع انه وقف شعره وفنه القصصى والمسرحى على الدفاع عن الفقراء والبائسين ولكن كوبيه كان يعتقد مثل بلزاك ــ الذى كان كوبيه متأثرا به فى كثير من آرائه وأعماله الادبية ــ انه لا بد من انظمة اجتماعية تكبح جماح تلك الطبقة الفقيرة التى خرج هو نفسه منها .. كان يمجد القوة ويعتقد بصلاحيتها .. فنراه فى « اضراب الحدادين » ينتقد الالتجاء الى العنف لتحقيق المطالب .. كما نراه فى قصة « فى سبيل التاج » يمجد سيادة الامة وان كان فى ذلك تضحية للافراد ولمصالحهم ·· وكذا فى سائر اعمال كوبيه سواء أكان فى شعره أم فى قصصه المسرحية أم قصصه الطويلة أم القصيرة نراه يدعو خلالها الى القوة و لسلطان وينتقد نظام سيادة الجماهير ·

لقد كان كوبيه بشعره فاتحا جديدا فى الادب الفرنسى ... فالموضوعات التى طرقها والشخصيات التى رسمها .. تلك الموضوعات والشخصيات التى ولدتها انسانية حزينة .. لم تكن معروفة عند الشعراء الفرنسيين الذين سبقوه .

كانت أولى مسرحيات كوبيه قصة « المار » وهى صرخة شباب كوبيه .. ذلك الشباب البائس المحتاج الممتلىء بالآمال الضائعة والرغبات المخنوقة .. ولقد نحا كوبيه فى هذه القصة منحى الفن القصصى التصويرى الذاتى الذى ابتدعه شكسبير فى « كيفما تريد ·· » وتأثر به

موسـسـيه فى « فيم تحلم البنـــات ؟ » وفى قصص « ســفيرو توريللى » و « اليعقوبيون » و « فى سبيل التاج » نرى كوبيه يجمع بين المذهب الرومانتيكى والمذهب الكلاسيكى وينزع فيها منزع القدماء وأخصهم كورنى فى أن يكون للقصة مثل اخلاقى أعلى ليجعل منهـا دراما أخلاقية .. وهذه القصص الثلاث دعوة حارة الى التضحية بكل شيء حتى العاطفة الابوية من اجل المبادىء السامية كالحرية ومجد الوطن .

ومسرح كوبيه ـ كشعره ـ صورة كاملة لحياته الشخصية ... وفى قصـــة « خطبة الكنيســـة » Le Pater نرى شقيقة احد القسوس الذى جرح فى أثناء الثورة الشيوعية التى قامت فى باريس بعد الحرب السبعينية .. نراها تنقذ الشخص الذى أمر باطلاق النار على الثائرين وهى تنطق بهذه العبارة :

« اغفروا لنا زلاتنا .. كما نغفر نحن للذين أخطئوا »

ولقد كانت هذه الكلمات نفســها هى آخر ما نطق به كوبيه قبل موته ..

رأينا أن كوبيه كان شاعرا اكثر منه ناثرا على ان نثره مع عبقريته الشعرية وطغيانها على فنه كان يمتـاز على نثر كثير غيره من الكتـاب الناثرين برقته وحرارته وبتلك الحسرة المريرة التى هى اولى خصائص ادب كوبيه .. فقصته النثرية الاولى « حب فى أثناء الحصار » برغم نواحى السرور والمرح التى تغمر بطليها العاشقين جابرييل واوجينى فى مطلع القصة فانها تنتهى بصور من البغضاء والحقد يضيع فى غمارها اثر السعادة الماضية ..

وفى « المساكين » نرى كوبيه يبلغ الذروة فى رقة الشعور وسمو القلب والدقة الصادقة فى تصوير ضواحى باريس وفتياتها الساذجات ٠

وقصص كوبيه يخترقها شعاع من السخرية.. ولكنها سخرية بريئة فيها معنى العطف فهو يصف الاطفـال كما يصف البسطاء من الرجال والنســاء الذين يقعون فى شـباك الخبثاء المـاكرين ٠٠ يصفهم بطريقة ساخرة فيرسم طبيعتهم وبساطتهم بطريقة تثير الضحك والالم فى وقت واحد ولكنها فى النهاية تستدر العطف عليهم والرثاء لهم .

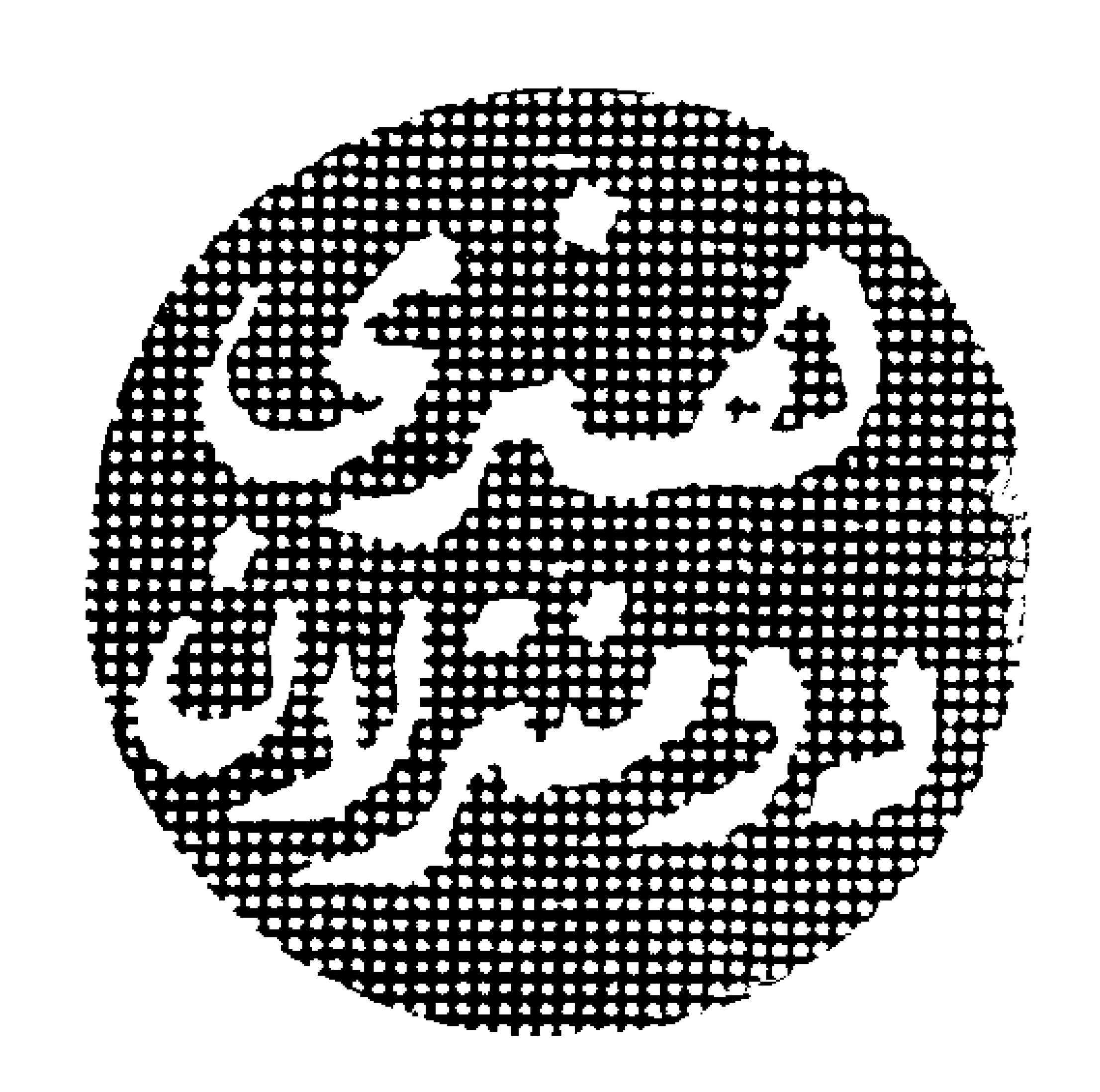
والرذائل ٠٠ الرذائل والنقائص الاخلاقيـة لها من قصص كوبيـه نصيب وافر .. وقد سهلت له حياته الباريسية فهم باريس .. فأجاد

رسمها ببراعة القصاص والشاعر الفنان .. وكانت الطبقات البائسة المتألمة هي الغالبة في جميع قصصه.. وفي قصته «الاغنياء الحقيقيون» Les vrais riches ترى لونا من الصوفية يشع من أدب كوبيه ففي هذه القصة نراه يؤمن بالمثل القائل : « المال لايجلب السعادة » فالاغنياء الحقيقيون في نظره هم اولئك الذين يحتفظون في أجسامهم بالكنز الذى لا يفنى : الا وهو القلب ..

وقصة « الجانى » وهى القصة الطويلة الوحيدة التى كتبها كما ذكرنا تعتبر من أروع اعماله وهى قصة أب هجر ابنه وهو ثمرة علاقة بينه وبين فتاة عاملة حين كان طالبا فيندفع الولد الشريد الى الرذيلة ويصل به الامر الى ارتكاب الجرائم .. ثم ينتهى به الحال الى الوقوف أمام المحكمة التى يكون أبوه قاضيا فيها .. فيعترف الأب علنا بأنه هو الذى جنى على ولده .. والقصة كتبت بأسلوب دامع وبطريقة لايملك القارىء معها نفسه من البكاء والثورة على تلك المآسى التى تحدث فى كل زمان ومكان .

لقد كان فرانسوا كوبيه فاتح الطريق لأدب جديد .. أدب الرحمة الواسعة والعطف الصادق على كل متألم بائس في الحياة .. ولقد صدق اناتول فرانس حين قال عنه :

« اذا كانت الثقافة المتوسطة تكفى لفهمه فانه لا بد لتذوقه تماما من ذهن ثاقب نقى » .



هنرى دو منترلان كاتب من الكتـــاب الفرنســيين الذين تفتحت عيونهم على ضوء هــذا القرن العشرين . ولد عــام ١٨٩٦ ولما شبت الحرب الــكبرى الاولى هجر مدرسته ليشترك فيها وجرح جروحا بليغــة .. وكان طبيعيا ان يعود منترلان وقد ملأت نفسه نزعة التشاؤم والثورة فقد هجر مدرسته ليخوض غمار القتال وهولم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره .. فعانى فيها أشهرا من الحرمان والتضحية لم يجد لهمــا مبررا أمام عقله الذى يفكر وقلبه الذى يحس .. كمــا يفكر ويحس كل اديب فنان ينزع نحو مثل عليا فى الحب والرحمة والاخاء .

عاد منترلان من الحرب ضـــائع العزم محطم الآمال .. وكان استعداده الأدبى قد ابتدأ يتفتح على ضوء تجاربه ومحنه السـابقة وما وجد عليه أمته بعد الحرب تتقاذفها النكبات ويسودها الانهيار الخلقى والضــعف والعــاطفة الجوفاء .. فانصــبت آلامه وثورته فى أدبه بحيث نلمسهما من بين خفايا الســطور وكانت انسانيته الحزينة تدفعه ــ كغــيره من كتــاب الشـــباب الذين خاضــوا غمــار الحــرب ــ لوصف اهوالهــا وما جرته وراءهــا من التدهور الاخلاقى والفكرى .. ولقد كانت (انانية الفنان) التى تغمره تأبى عليه أن يضحى بشىء دون أن ينال على تضحيته جزاء يبررها ويلتمس منه العزاء .. لذا لم يغفر منترلان لأمته وللمجتمع تضحيته الكبيرة حين جرفته العاطفة الوطنية كغيره دون وعى الى ميدان القتال ليتعذب شر عذاب ويعود جريحــا بين الحياة والموت فاقد الأمل فى اتمام حياته المدرسية ..

ولقد كان هذا الشباب المعذب دافعا لهنرى دومنترلان الى أن يهيم بتلك السن التى ضحى وتألم فيها . فأصبح يمجد سن الشباب (تلك السن ــ كما يقول ــ التى لا تعترف بجميل ، ســن القلب والنفس ، نجم الحيــاة المتألق) ولقــد تدرج منترلان من ذلك الى الولع بالالعــاب الرياضية لانها المظهر الذى تتمثل فيه حيوية الشباب وجبروته ولأنها الوسيلة لاطالة عهد الشباب الى ابعد مدى مستطاع والارتفاع بروحه المعنوية وانقاذه من الاستسلام للملل واليأس .

وادب الالعــاب الرياضـــية .. فن حديث فى الادب الفرنسى و (ترستان برنار) هو صاحب الفضل الاول فى تغذية القصة الفرنسية

بالأفـكار الرياضية ومعـالجة شئونها ووصف أبطالهـا ٠٠ وكان يحسب الكتابة عن العاب الملائمه وأبطالها كما فى قصته (نقولا بيرجير) على أن هذه المدرســة الجديدة ظلت بطيئة الحطى ولم يتعد نشــاط قادتها القليلين الكتابة فى الصــحف والمجـلات واخراج عدد قليل من الاعمال الادبية التى لم تكن ذات قيمــة تذكر ٠٠ الى أن كانت الالعـاب الاولمبية عام ١٩٢٤ فنشط انصار (ادب الالعاب الرياضيـة) وارادوا ان يدخلوا الفنون الرياضية فى القصة الطويلة والقصيرة وفى الشعر ايضـا .. وكثر عددهم واتسعت مدرستهم وأصبح كل منهم متخصصا فى الـكتابة عن فن من فنون الالعاب الرياضـية فمنهم من هام بالسـيارات مثل هنرى كستماكرز كما فى قصته (السائق دوبون Dupont chauffeur ، M ومبشيل كورداى فى قصته (السيد والسيدة والسيارة) واكتاف ميربو فى قصته الشهيرة (السيارة رقم ٦٢٨) La 628 — E 8 التى اعتبرت وقتئذ فى نظر النقاد أروع قصة فى (أدب السيارات) .

وهنـاك من ولع بالعاب كرة القدم مثل جان برنييه فى قصـته (رأس مقاتلة) Tête de mêlée ولوى هنرى دستل فى قصته (ديروش لاعب الكرة) وتعتبر (قصة خمسة عشر رجلا) L'histoire de quinze hommes لمارسيل برجيه خير ماكتب فى (ادب كرة القدم) .

وغير هؤلاء الكتاب عدد كبير من انصار هذه المدرسة جعلوا من شخصيات قصصهم ابطالا لفنون رياضية اخرى مثل سباق الخيل والطيران وغيرهما .

وهنرى دو منترلان يعتبر من زعماء أدب الالعـاب الرياضــية ٠٠ وقد برع فى الـكتابة عن المصارعة وسـافر خصيصا الى اسـبانيا وتعلم طريقة مصارعة الثيران ودرس نفسية ابطالها واخلاقهم ثم عالج ذلك فى قصته (مصارعو الوحوش) Les bestiaires

كان أول أعمال منترلان قصة (دوريةالصباح) La relève du matin التى كتبهـا عام ١٩١٦ وظهـرت عام ١٩٢٠ وفيهـا يصف ذكرياته عن الحرب والمدرسة التى كان يتعلم فيها .. وفى عام ١٩٢٢ ظهرت قصته (الحالم) Le songe وفيها يمجد الألعاب الرياضية والصداقة التى بين الابطال الرياضـيين .. تلك الصـداقة التى يضـعها (الـان) بطل القصة فوق الحب ٠٠ وفكرة (البان) عن الحب هى فكرة الكثرة العظمى من أبطال الرياضـة الذين يقعون فريسـة النزاع الدائم بين نداءين ٠٠ نداء القـلب ونداء الواجب الرياضى الذى يطالبهم بالابتعـاد عن النساء ليحتفظوا بعنـاصر القوة فيهم ٠٠ وينتهى بهم الامر الى انتصـار النزعة

الرياضية وعبادة القوة والمجد فيتضاءل مركز المرأة فى نظرهم ٠٠ وهم لذلك لا يؤمنون بالحب العاطفى ٠٠ فالحب فى نظرهم ميل جسدى اذا ما تحقق مات ما يسميه الناس بالحب ٠٠ ولذا نرى (البان) يرفض حب القلب بقسوة ويرى فيه وهما سرعان ما يبدده واقع الحياة .

ولالبان هذا رأى غريب الى حد ما .. فهو يقول ان العالم خاضع لفلسفتين .. فلسفة النساء .. وفلسفة الرجال — فالاولى تتمسك بالديمقراطية .. أما الثانية — وهى التى يؤمن بها بعناد — فهى تتشبث بالماضى المجيد وبالقومية .

وفى قصة (الجنة تحت ظلال السيوف) Le paradis à l'ombre des épées (١٩٢٤) نرى منترلان يبرر اهتمامه بالعاب الرياضة اذ يعتبرها مرحلة من مراحل تحقيق الشخصية٠ على أن فكرته فى علاقة الرياضة بتكوين الشخصية تتكرر بشكل أقوى بروزا فى قصته « مصارعو الوحوش » التى ظهرت عام ١٩٢٦ اذ يعرض لنا منترلان نوعا من أنواع المخاطرة الجريئة .. تلك التى يستهدف لها مصارعو الثيران .. يعرضها مصادفة فى قالب بارع يدفعنا لاحترام أولئك المصارعين البسلاء الذين يغامرون بحياتهم حبا فى السيطرة واظهارا للقوة وامتحانا لشخصياتهم التى لاتعتبر كاملة فى نظرهم اذا عرفت للوجل معنى ..

وتتابع انتاج منترلان فكتب قصة (العزاب) Les célibataires (١٩٣٤) و (الشابات) Les jeunes filles فى أربعة أجزاء (١٩٣٦ — ١٩٣٩) ثم اتجه الى المسرح فكتب (الملكة المتوفاة) La reine morte (١٩٤٢) و (سيد سانتياجو) Le maître de Santiago (١٩٤٧) و (مالاتستا) Malatesta (١٩٥٠) و (بور رويال) Port-Royal (١٩٥٥)٠

فى جميع هذه القصص نرى منترلان يبشر بفكرته الرئيسية بطريقة أو بأخرى (فالمهم — كما يقول — هو أن يرتفع المرء بشخصيته الى ما فوق ظروف الحياة المحيطة به ، فبهذا الارتفاع يتسامى على ماأصابه من خيبة الامل فى الحياة التى يحلم بها وينفصل عن الظروف التى لاترضى طموحه ويحيى حياة تغذى استقلاله وشخصيته وتجعل من هذه الحياة عقيدة خاصة بل وطنا صغيرا يحل محل وطنه الاكبر اذا ماخيب هذا الوطن رجاءه) .

ولكن على أى أساس يرتكز هذا (الارتفاع) الذى يدعو اليه منترلان ؟ انه يرتكز عنده على احساس المرء بقوته وبطولته وفى ذلك يقول (ليست هناك الا فكرتى عن نفسى لكى أستطيع الوقوف على بحار العدم) فتصرف المرء لاقيمة له فى نظره اذا لم يكن منبعثا من صميم

طبيعته وميوله .. على أن يكون واثقـا من أن هـذا التصرف لايهوى بمعنوياته الى التردى والضـياع بل يسمو بهـا الى مـدارج القـوة والاعتزاز ..

لهذا نرى منترلان قد جعل من أبطاله نماذج للانسان المستقل الشخصية المفعم بالنشاط .. المتوقد الذهن .. القاسى عند الضرورة .. المتلىء احساسا بالشرف والكبرياء . سواء كان مقاتلا فى ميدان الحرب أو بطلا من أبطال الرياضة زمن السلم ..

وقد يسأل المرء .. كيف يبشر منترلان بقيمة الالعاب الرياضية ويخصص أدبه لخدمتها والدعوة لنشرها وهو الناقم على مظاهر العنف الثائر على نظام الجنـدية والحرب .. الداعى الى الاخـاء والمحبـة والتعاون ؟.. ومنترلان نفسه يحس بالتنـاقض الظـاهر بين طبيعته الثائرة المتمردة وبين نظام الالعاب الرياضية الذى يدعو اليه وما فيـه من معانى الخشونة والقسوة فى كثير من الاحيان كما فى مصارعةالثيران التى يمجدها ..

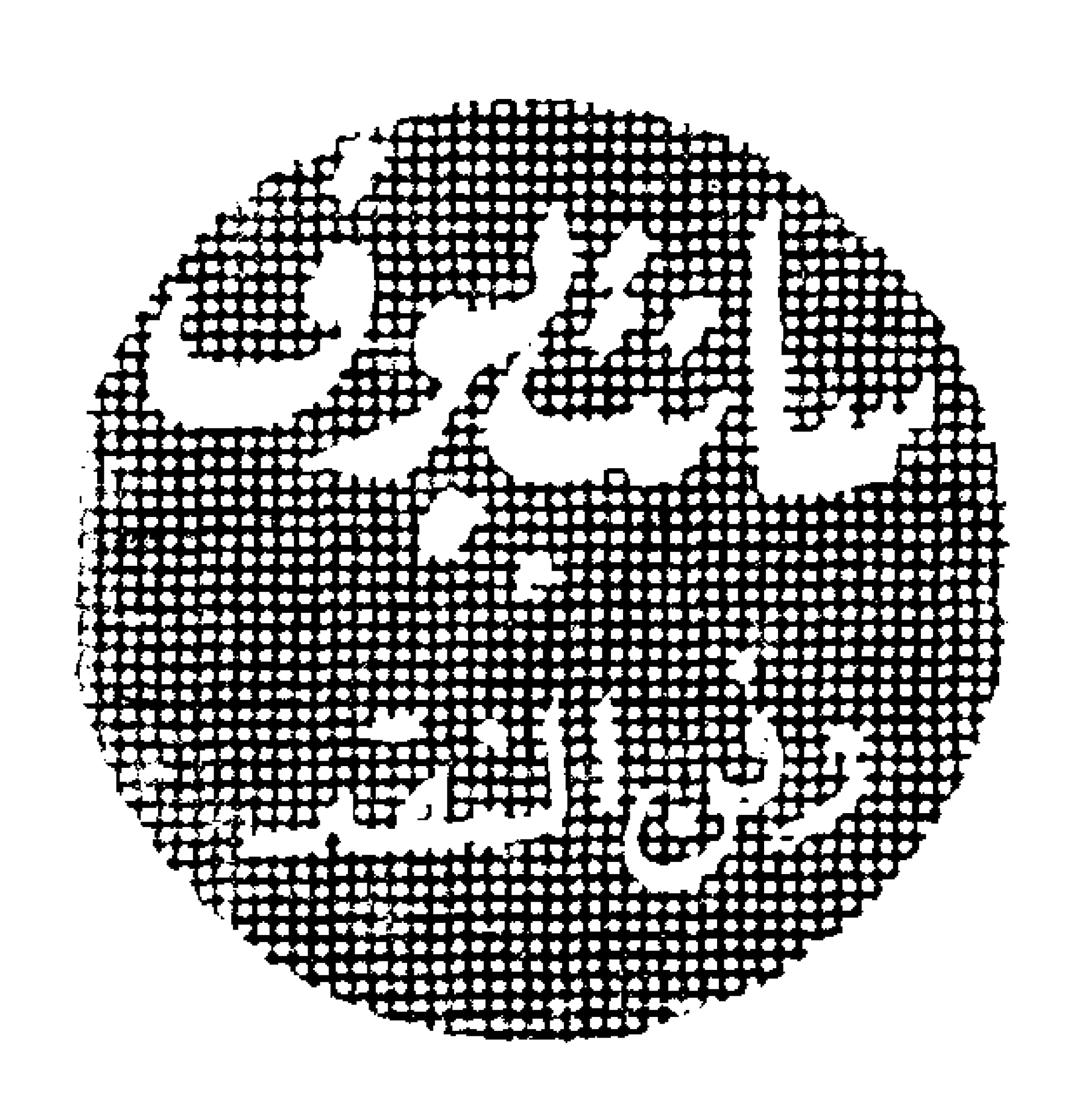
على أن منترلان يقبل ذلك التناقض كارها ، يقبله كوسيلة لتحقيق فلسـفته التى ترى فى الالعاب الرياضـية ـ كمـا ذكرنا ـ وسـيلة لابراز الشخصية والسمو بها على سائر الشخصيات التى تحيط بها .. والواقع ان منترلان قد اجاد تصوير فكرته بطريقة غاية فى الابداع. فنحن نلمح خلال شخصيات قصصه كيف تتفتح الشخصية وتسود حين يصبح صاحبها بطلا من أبطال الرياضـة .. وكيف يغمر صـاحبها النشاط والحيوية وعبادة البطولة التى تدفعه للاستهداف للموت راضى النفس مرتاح الضمير .

وأدب منترلان أقرب الى الرومانتيكية منه الى الواقعية وهو فى ذلك يقول :

« ان الواقع والحقيقة تقع عندى فى المرتبة الثانية »

واذا كان كل كاتب لابد ان يتأثر بروح بعض من سلفه من الكتاب .. فان بلزاك وشاتو بريان يطبعان أدب منترلان بطابع لا يمـكن انكاره وتناسيه .

ويمتاز هنرى دو منترلان بأسلوبه الرائع .. فثروة الالفاظ وحسن اختيارها وأدائها .. والموسيقى السامية التى تلبس عباراته فتعبر عما يدوى بين ارجاء نفسه من النزعات والعواطف هى أظهر ما يميز فنه وشخصيته بين الكتاب الفرنسيين المعاصرين .



كان النقد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر قائما على تلخيص أعمال الكتاب وايراد مقتطفات من كتاباتهم مصحوبة ببعض تعليقات عليها وكانت هـذه التعليقات على تفاهتها وقلة اهتمام النقـاد بايرادها تمثل الفوضى المطلقة ٠٠ فكان كل ناقد ينظر الى الكتاب المنقود بمنظار فـكره الخاص ٠٠ فاذا اتفق تفكير الكاتب وتفكير الناقد كان الـكتاب ناجحا فى نظر الناقد فيهلل له تهليلا ٠٠ واذا خالفه كان سقوط الكاتب هو المصير الأكيد ٠٠ كان النقد اذن نظريا فلم تكن له قواعد يتبعها الناقد فى نقده ٠٠ ولم تكن هناك شروط معينـة من المفروض توافرها فيمن يتصدرون لنقد أعمال كبار الكتاب والادباء ٠

واستمر الحال هكذا حتى صاح (جرم) قائلا :

(ان الاعمـال الادبيـة العظيمـة لا ينبغى أن تدرس بالاطلاع على ملخصاتها بل يجب أن تقرأ جيدا٠٠ أما الاعمال الادبية التافهة فلاتستحق الا الاهمال المطلق ٠٠ ان النقد الصادق هو الدراسة والاطلاع ٠٠ والناقد يجب أن يفهم المؤلف حق الفهم٠٠ ويتغلغل الى أعماق تفكيره لا أن يخضع لفكره الخاص) ٠

على هذا الاساس نشأت بذرة فن النقـد الحديث فى أوائل القرن التاسـع عشر ٠٠ وكان أول مظاهره نشـوء ما سمى بالنقـد التاريخى Critique historique والفـكرة فى ذلك أن العمـل الادبى خاضـع بالضرورة للحالة الاجتماعية فى العصر الذى كتب فيه ٠٠ فلكى نحكم على الـكتاب حـكما عادلا وجب أن نقيم وزنا للظروف التى عاصرته ٠٠ تلك كانت وجهة النظر الجديدة وكان أول من عمل على تطبيقها الاستاذ فيلمان فكان النقد فى نظره صورة من التاريخ وقد اتبع طريقته هـذه فى النقد عنـد كتابتـه عن الادب الفـرنسى والآداب الأوربيـة كالأدب الانجليزى والايطالى والاسبانى ٠

ومن أوائل المجـددين فى النقـد سـان مارك جيراردان (١٨٠١ – ١٨٧٣) قد اشتهر بمحاضراته فى السوربون وبكتابه (بحث فى الأدب الدرامى) الذى قال عنه معاصره الناقد المجدد (نيزار) « انه كتاب أدبى ٠٠ولكنه يسمو الى مصاف الكتب الأخلاقية العظيمة » ٠

كان فيلمان وسان مارك جيراردان صاحبى الفضل الاول فى الخروج بالنقد من فوضاه القديمة ٠٠ وذلك يمزج النقد بالتاريخ واعتبار الأول صورة مصغرة من الثانى ٠٠ على أن فضلهما كان أشبه بمناورات طفيفة اذا قورنا بالفاتح الجديد سانت بوف ٠٠

كان سانت بوف (١٨٠٤ ــ ١٨٦٩) فى مبدأ حياته طبيبا ثم انضم الى جماعة فيكتور هوجو ٠٠ وفى عام ١٨٢٨ نشر كتابه (دراسة فى النقد الفرنسى فى القرن السادس عشر) ثم ارتفع اسمه كشاعر عندما نشر عام ١٨٢٩ مجموعته الشعرية الاولى (شعر جوزيف دولورم) ثم مجموعته الشعرية الثانية (عزاء) (١٨٣٠) وفى عام ١٨٣٤ نشر قصته (الشهوة) Volupté وفى عام ١٨٣٧ نشر مجموعته الشعرية الثالثة (أفكار شهر أغسطس) Pensées d'août ٠

وابتداء من عام ١٨٤٠ تفرغ سانت بوف للنقد الادبى الذى نبغ فيه بسرعة نبوغا عجيبا فلم يكن ينافسه فيه منافس ٠٠ وفى عام ١٨٤٥ انتخب عضوا فى الاكاديمى .. وفى عام ١٨٥٧ عين أستاذا فى مدرسة النورمال فالقى سلسلة من المحاضرات نشرت فيما بعد بعنوان (دراسات عن فرجيل) ولقد كتب سانت بوف ما يقرب من ثلثمائة ترجمة Biographie وصورة أدبية Portrait littéraire جمعت تحت أسماء مختلفة منها (أحاديث الاثنين) و (صور أدبية) و (صور معاصرة) و (صور من النساء) وغيرها ٠

واذا كان لفيلمان وسان مارك جيراردان فضل النهوض بالنقد كفن له قواعد وأصول٠٠ فان لسانت بوف فضل المجدد الطليق الذى لايلتفت لحظة الى الوراء ولا يرعى تقاليد الماضى ٠٠ فهو الرجل الذى قلب بحق فن النقد فى القرن التاسع عشر فلم يبلغ أحد ما بلغه فى تطبيق طريقة (النقد التاريخى)ولم يكن هناك من يفوقه فهما لمهمة الناقد الوفى .

كان سانت بوف ناقدا بالسليقة اذ كان يجمع كل الصفات التى يجب أن تتوافر فى كل من يجرؤ على خوض غمار فن النقد ، ذلك الفن الذى يعتبر من أصعب فنون الادب ٠٠ وهذه الصفات الضرورية التى كانت من أخص سجايا سانت بوف هى :

أولا ــ حب الاطلاع .. فكان يجد السعادة كلها فى دراسة كل أنواع الكتاب ٠٠ من يحبهم ومن لا يحبهم ٠٠ وقراءة الاعمال الادبية من جميع العصور ٠٠

ثانيا ـ الجلد الذى كان يجعله لا يمل قراءة أبسط التفصيلات والاصغاء لكل كلمة قبل أن يقدم على نقد عمل أدبى ·· وكانت أبعد الصفات عن طبيعته أن يفر من الصفحات المملة أو أن يكتفى بقراءة الفهرس ودراسة المقدمة كما يفعل الكثيرون ·

ثالثا ـ الذكاء الوافر الذى يهيىء له القدرة على فهم نفسه والتخلص من سيطرة رأيه الخاص فى المؤلف وفى الموضوع الذى يبحثه المؤلف · وكانت عبقرية سانت بوف من هذه الناحية تنحصر فى أمرين: الأمر الاول مهارته فى أن يلبس شخصية المؤلف الذى ينقده فيزول بذلك ما قد يوجد بينهما من اختلاف فى وجهات النظر ويصبح المؤلف فى نظره رجلا عاديا لا غرابة فى أفكاره فينقده فى هدوء وصفاء .. والامر الآخر أن يخلق حول نفسه الجو الذى كتب فيه الكتاب حتى تكون موضوعاته كأنها حقائق واقعة وعندئذ يقدم على دراسة الكتاب دراسة عميقة ناظرا اليه من كل النواحى مشددا عليه الخناق ·· وكان هذا فى نظر سانت بوف هو الوسيلة الوحيدة لفهم الكتاب ·

رابعا ـ الليونة فى التفكير ·· فقد كانت لسانت بوف القدرة العجيبة على نقد كتاب ما ، ثم الانتقال الى نقد كتاب آخر على أتم خلاف فى الرأى مع الكتاب الاول ·

خامسا ـ عاطفة العدل ·· وهى سجية طبيعية نادرة الوجود لدى الناس . ويقصد بها أن الشخص اذا عهد اليه القضاء فى أمر من الامور فانه يكون أسير عاطفة تجعله لا يقضى الا بالحق والعدل ·· وهذا هو السبب فى أن جل أحكام سانت بوف على مئات الكتب التى نقدها كانت أحكاما عادلة سليمة من اللوم برغم تضارب أنواع الكتب واختلاف مذاهب مؤلفيها ·

استغل سانت بوف هذه المواهب النادرة فى عمله كناقد·· على أنه كان الى جانب ذلك مبتدعا لطرق جديدة فى النقد لم تكن معروفة من قبل ·· فأدخل على النقد شيئين :

أولا ـ الصورة

ثانيا ـ الترجمة

كان سانت بوف اذا أراد أن ينقد كتابا من الكتب سأل نفسه :

ما أخلاق الكاتب ؟

وما ميوله ؟

وما طباعه ؟

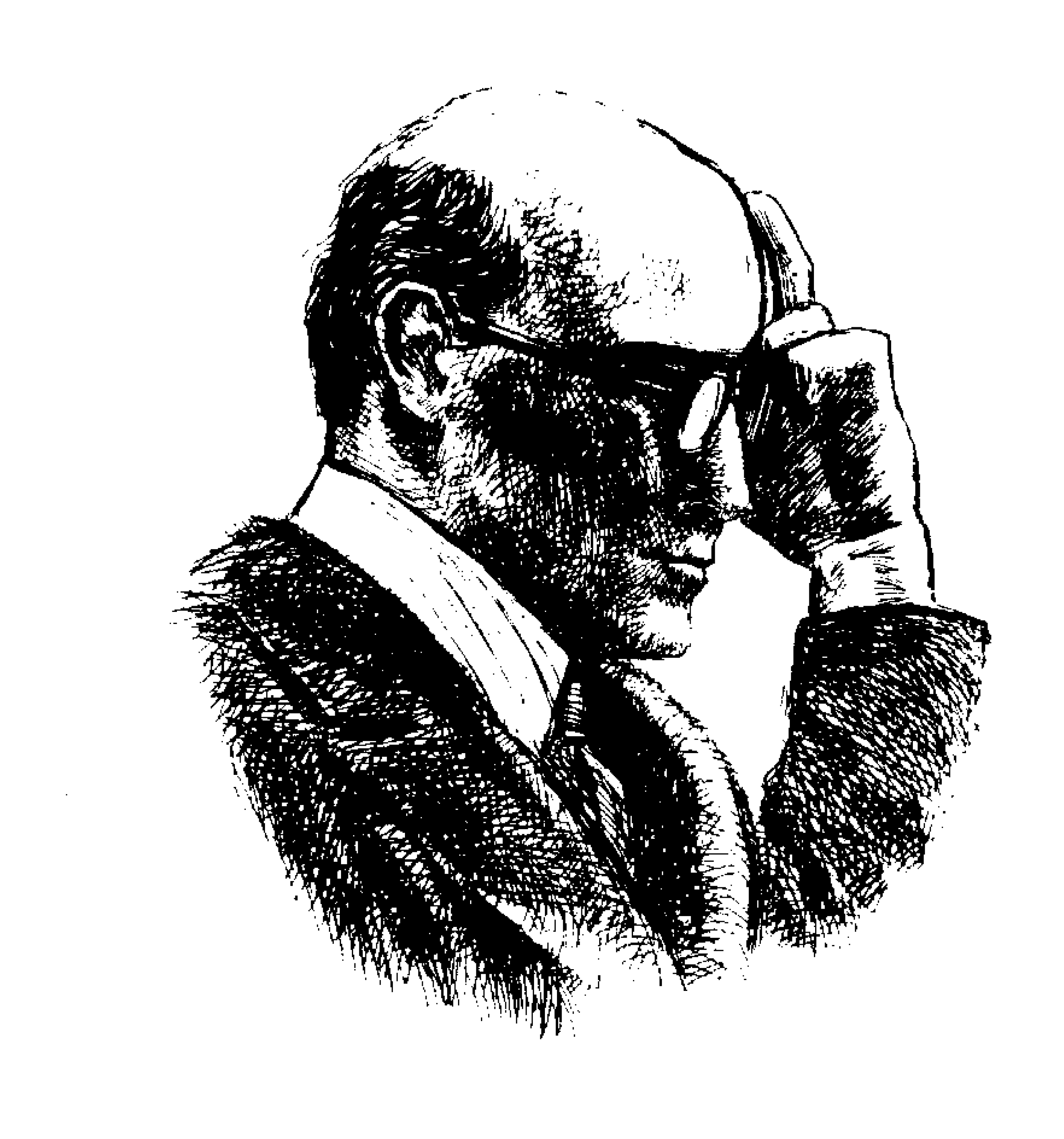
وكان يلح فى الوصول الى حقيقة هذه الاشياء التى قد يظن البعض أن لا علاقة لها بالكتاب المنقود .. على أنها كانت فى رأى سانت بوف أهم ما يساعد على فهم الكتاب علاوة على فهم المؤلف نفسه .. وكانت هـــذه الفكرة هى الباعث لسانت بوف على كتابة عشرات الصور لمختلف الكتاب والادباء .. وقد كتب سانت بوف يشرح فكرته فى ذلك فقال :

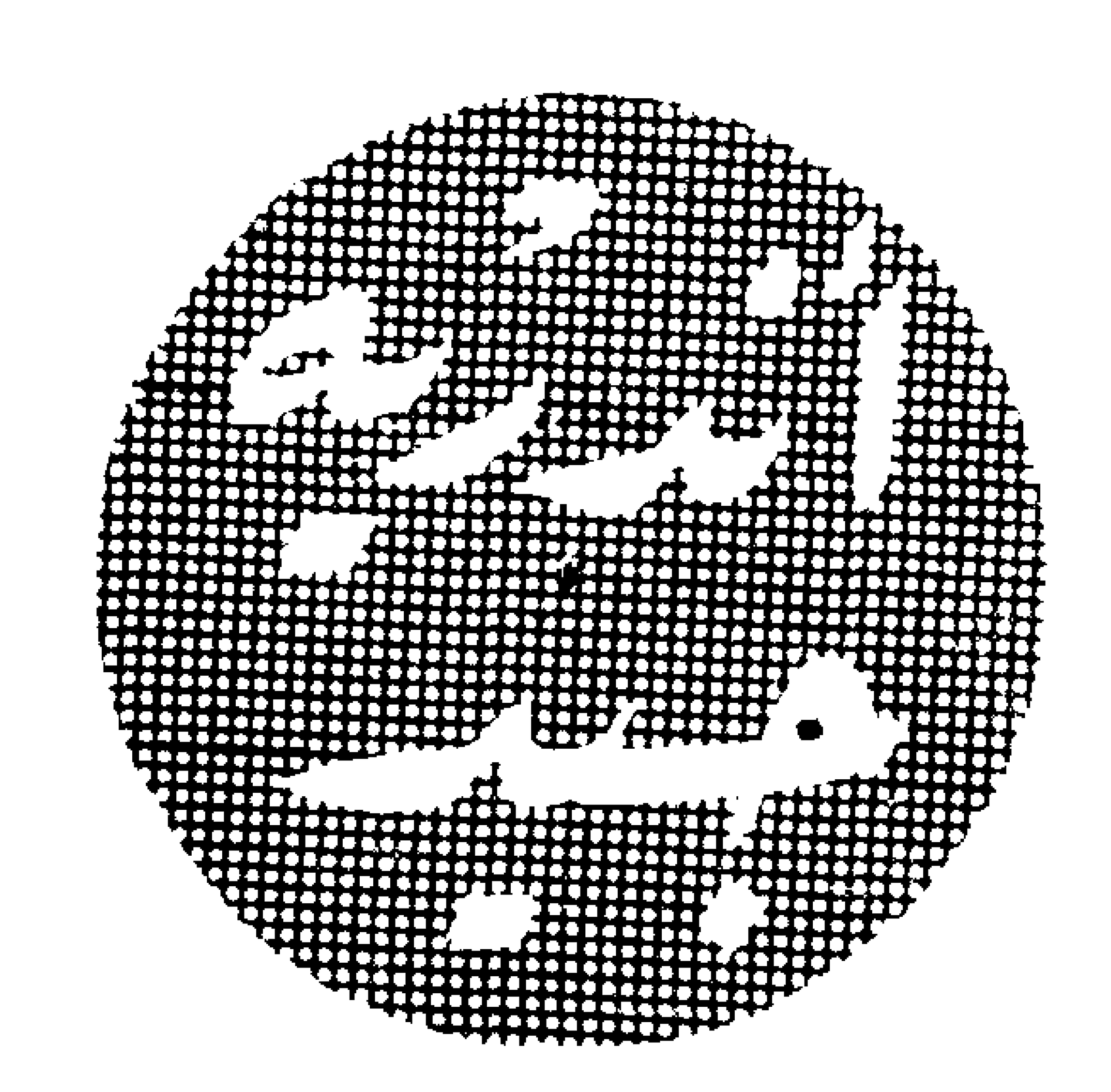
« اننى أحب دائما الرسائل والاحاديث والافكار وكل الدقائق التى تعين على فهم أخلاق الكاتب .. وبكلمة واحدة أحب دراسة تراجم كبـار الكتاب .. ولقد أحبس نفسى خمسة عشر يوما محاطا بكتب شـاعر أو فيلسوف مشهور توفى فأدرسه وأعيد قراءة ما قرأته وأسائل نفسى فى هدوء وروية وعندما أنتهى من دراستى أرى أن هذهالدراسة قد أوصلتنى فى النهاية الى كشف عوالم خفية فأجد أن ذلك الكاتب الغامض الذىكان فى البداية لا يختلف فى نظرى عن نوعه منالكتاب يضم منالسجايا الفنية الخاصة به ما لا يمكن تجاهله ونسيانه » .

ولقد ظهرت هذه الطريقة الجديدة التى اتبعها سانت بوف فى النقد ظهورا قويا فى مجموعته الشهيرة (صور أدبية) .

على أن هذا النوع من الدراسة لنفسية الكتاب وأخلاقهم كانيعتبر فى نظر سانت بوف سطحيا لا يكفى لكى يكون النقد كاملا غير منقوص ، لذا كان يرىضرورة التوسع فىدراسة الكاتب واتمام ما كان يعتبره نقصا باضافة ماسماه (التاريخ الطبيعى للافكار Histoire naturelle des esprits) ذلك أن بين (أفكار) الكتاب نواحى من التشابه وأخرى من الاختـــلاف فواجب الناقد أن يفتش عن هذه النواحى حتى يعثر عليها ويميزها ويبين خلالها خصائص كل كاتب وأوجه التشابه والاختلاف فىالافكار بينه وبين غيره من الكتاب الذين يكونون معه أسرة فكرية واحدة ولقد لجأ سانت بوف لتحقيق ذلك الى طريقة الطبيعيين Naturalistes باستخدام ما يسمى Monographie أىترجمة حياة الكاتب تحت ضوء الملاحظةالصادقة لنشأته وبيئته وذلك للوصول الى أغوار فكره ، واكتشاف (الفروق العظيمة الطبيعية) ـ كما يقول ـ بين العقول المختلفة .

ولقد تضمنت مجموعتاه الخالدتان (أحاديثالاثنين Causeries du lundi) و (أحاديث الاثنين الجديدة Nouveaux lundis) هذه التراجمالفكريةالفائقة التى تعتبر بما احتوته من الافكار الغزيرة والذوق السليم .. خير نموذج لفن النقد الحديث .





لعل الادب الفرنسي عامة لم يشهد بين رجاله أديبا تلهفت الشبيبة المثقفة من الجنسين في أنحاء العالم المتمدين على مؤلفاته مثل الكاتب الفذ اندريه جيد ، وهذا الاديب الذي مات في الثانية والثمانين من عمره وهو شاب القلب والذهن ظل يتزعم عشرات السنين حتى وفاته عام ١٩٥١ ! مدرسة (التحرر الاخلاقي) Immoralisme في الادب الفرنسي الحديث ويعالج بمؤلفاته التجديدية العديدة مشاكل الشباب النفسية والنزعات الجامحة المتقلبة التي تلازمه بصراحة جريئة وحرية لا حد لها فنفر منه التقليديون في حين احتفظ الشباب بالولاء له وتمجيده والتهام كتبه . ثم توج أدبه في النهاية بمنحه جائزة نوبل للآداب عام ١٩٤٧

لقد خاض جيد ميدان الادب أكثر من نصف قرن ، وكانت نزعته التجديدية منذ كتابه الاول تضم الاخلاص نفسه والحرارة والايمان بوجهة نظره التي تضمنها أحدث كتبه عهدا .. ذلك أن جيد بدأ حياته الفكرية راسخ الثقافة .. وكانت العوامل المتضاربة التي تضافرت في تكوين تفكيره من القوة وعنف التأثير بحيث طبعت شخصيته ولون أدبه بذلك الطابع الذي عرف به والذي لم يتحول عنه برغم امتداد السنين وهجمات المهاجمين .

ولقد كان فن جيد ميدانا خصبا لتحليل النقاد ودراستهم في عشرات الكتب بمختلف اللغات ، وهذه الدراسات ان اختلفت احداها عن الاخرى من بعض الوجوه فهي تتفق جميعا في عمق تأثير تفكير جيد وفلسفته على نفسية الجيل الذي خلف الحرب العالمية الاولى ذلك الجيل الذي صهرته المحن والكوارث فخرج منها فاتحا صدره لاستقبال كل رأي ، مستعدا للخروج على كل قديم والتعلق بكل فكر جديد يحطم أغلاله ويحرر نشاطه في الاجتماع والفن والاخلاق على السواء .

في دراسة تحليلية لفن أندريه جيد كتبها الناقد الفرنسي الكبير بنجامان كريميو نراه يبدأ بقوله :

« ان أول نظرة الى اندريه جيد تبين لنا انه مخلوق مضطرب قلق معقد يتركب من عدة شخصيات .. ولكنه يمت الى نوع نادر من البشر .. ثم لا نلبث أن ندرك أن فنه صورة منه » .

والواقع أن فن اندريه جيد وفلسفته هما قبل كل شيء صـــدى لمشكلة نفسه ومأساة حياته ·· فقد نشأ في أسرة دينية متقشفة من أب بروتستنتي وأم كاثوليكية ·· وربى جيد تربية دينية خالصة ، فكانت هذه التربية وتناقضها مع طبيعته ومع الظروف التي صادفت شبابه سببا قاسيا في أن تجعل من حياته مأساة انسانية ، وأن تجعل شـــخصيته فريسة لحرب شعواء بين جيد المتدين بولادته وأسرته وتربيته ·· وجيد المتحرر من سيطرة الدين بعقله وارادته ·

ولد جيد عام ١٨٦٩ وعندما بلغ سن الشباب استيقظت نفسه على أشعار الجيل الاول من المدرسة الرمزية في الشعر الفرنسي تحت زعامة فرلين ورامبو وملارميه .. وكان عهد ازدهار هذا الجيل قد آذن بالمغيب وخلفه الجيل الثاني الذي من أعضـــائه فرنسيس جيمس وبول كلوديل وبول فور فانضم اليهم اندريه جيد ، اذ وجد في الشعر الرمزي الحـالم السابح في أجواء الخيال ، المتحرر حتى من القيود الشعرية نفســها ، سبيلا الى الانطلاق من عالمه الديني المحدود الآفاق ·· ولم يكن تأثر جيد بالشعراء الرمزيين مقصورا على فنهم وحسب ·· بل كان يجد في حياة الكثير منهم مثل فرلين ورامبو مثلا أعلى لحياة الفنان الذي يريد أن يصل الى فهم الحياة مهما كلفه ذلك من الثورة على كل تقليد ، والخروج على كل عرف أخلاقي ·· على أن رمزية اندريه جيد لم تبلغ في تحكم العاطفة بهـا ما بلغته رمزية الجيل الاول ·· فهو أقل حدة في العـــاطفة وجموحا في الخيال ·· وهو أمر سخرية وأعمق تفكيرا وأشد رغبة في ادراك حقيقة نفســه وأعظم انطلاقا وتعلقا بالحيـــاة المرحة .. وفي أول كتبه (دفاتر اندريه والتر) Les cahiers André Walter (١٨٩١) نراه يعبر عن ذلك بقوله

« يجب النظر الى الحياة بعين شاملة وطبيعية طلقة مع الاحتفـــاظ بالنفس المتيقظة » ·

وفي ذلك الوقت أيضا ــ وقت شباب جيد ــ غزت فرنســا أفكار الفيلسوف الالماني (نيتشه) والكاتب الايرلندي (أوسكار وايلد) فتأثر بهما اندريه جيد تأثرا عظيما ·· أخذ عن الاول فكرته عن (السبرمان) وعن الآخر فكرته عن سيادة الفن وحق الفنان في أن يحيا على هامش العادات الاخلاقية المرعية ، والاثنان ــ جيد ووايلد ــ يتفقان في ايمانهما بفكرة الجمال عند الاثينيين القدماء ·

كذلك تأثر جيد بفكــرة الــكاتب الفرنسي موريس باريس Barrès عن (تقديس النفس) Le culte du moi كما أخذ عنه سخريته العالية

وأخيرا يجيء دور الكاتب الروسى (دوستويفسكى) فكما أن نيتشه وإيلد كانا اعظم اثرا فى جيد الشاب ٠٠ كان دستويفسكى أعظم أثرا فى جيد الرجل ٠٠

من ذلك نرى ان جيد قد تأثر بكل الآراء المتطرفة المعاصرة له ٠٠ أليس هو القائل :

(ان كل ما هو متطرف يؤثر فى) ٠٠٠٠ ؟!

لقد تأثر بالشعراء الرمزيين الفرنسيين ٠٠ وبأوسكار وايلد الايرلندى ونيتشه الالمانى ودوستويفسكى الروسى .. لذا كان أدبه كلاسيكى النزعة .. على أن جيد برغم كلاسيكيته بعيد كل البعد عن العبودية لمن تأثر بهم ٠٠ فشخصيته القوية المستقلة تنبض بها أعماله كلها بشكل قوى مؤثر .. ذلك ان طبيعته الثائرة القلقة وجهده الصارخ فى التحرر يجعلانه يجرى وراء الثقافة الواسعة التى لا تعرف التمييز بين كاتب وآخر ٠٠ (فأنا ـ كما يقول ـ أنتظر دائما شيئا أجهله ، أنتظر ضروبا جديدة من الفن وأفكارا جديدة)

ولقد قادته رغبته الحارة فى المعرفة الشاملة الى دراسة اللغات الاجنبية كى يقرأ أعمال من يعجب بهم بلغاتهم الاصلية ٠٠

كانت أعمال أندريه جيد الاولى (دفاتر اندريه والتر) و (معاهدة نارسيس Traité du Narcisse ١٨٩٢ و (رحلة أوريان Le voyage d'Urien (١٨٩٣) عبارة عن اعترافات تتضمن نزعات جيد الفكرية التى أراد بها التحرر دفعة واحدةمن حياته الطاهرة المتقشفة .. ففى أول أعمالهيقول:

« الحياة الطلقة ، تلك هى أسمى حياة ، سوف لا أستبدلبها غيرها مطلقا ٠٠ لقد ذقت من هذه الحياة ضروبا كثيرة ٠٠ على ان الحياةالحقيقية كانت أقصرها » ٠

وفى هذه الاعمال الثلاثة الاولى يلمح القارىء بين سطورها ميولا جامحة خفية .. يحاول جيد أن يحجم عن التصريح بها .

على أن هذه الحرية التى يبيحها جيد لنفسه دون قيد لا تلبث أن يطغى عليها أحيانا احساسه الدينى فيقول فى كتابه الاول نفسه :

(اننى أتمنى وأنا الآن فى الحادية والعشرين منعمرى ، وهىالسن التى تنطلق فيها من عقالها الشهوات ، ان أقمعها بالعمل المضنى اللذيذ٠

انني أود فى الوقت الذى يجرى فيــه الآخرون وراء ملذاتهم أن أذوق اللذات الخشنة التى تلازم حياة الصومعة) ٠

وفى (الأغذية الارضية) Les nourritures Terrestres (١٨٩٧) نرى جيد يبلغ انطلاقه الكلى من حيث الدعوة الى أن المعرفة لا تأتى عن طريق الفكر بل عن طريق الحس ٠٠ من ذلك قوله :

(انك لا تستطيع أن تقدر المجهود الذى كان لزاما علينا بذله لكى نحس احساسا صادقا بالحياة ، والآن وقد تحقق ذلك فهو كالحال مع كل شىء آخر ٠٠ عن طريق الحس والشهوة)

وكقوله أيضا :

(لقد تسكعت هنا وهناك كى أستطيع أن ألمس كل من يتسكع ٠٠ ان قلبى ليفيض بالحنان والحنين الى كل من لا يعرف مكان دفئه٠٠وأحب حبا مفرطا كل من يهيم بالتجوال والتصعلك) ٠

ثم انظر كيف لا يستطيع الفرار فى هذا الكتاب أيضا من احساسه الدينى حين يقول :

(كنت أقرأ « عقيدة العلم » لـ « فيخت » فشعرت بأننى سأعـود متدينا من جديد) ٠

وفى قصته (المتحرر من الاخلاق) L'immoraliste (١٩٠٢) نرى عبقرية جيد وتأثره العميق بالفيلسوف نيتشه قد تعاونا على اظهار فكرة (التحرر الاخلاقى) حيث نرى بطل القصة (ميشيل) ـ وهو شاب مريض ـ يتقدم نحو الشفاء كلما حرر نفسه من الاوضاع الاخلاقية التقليدية ٠

وفى (البـــاب الضــيق) La porte étroite (١٩٠٩) و (ايزابيل) Isabelle (١٩١١) و (الســـامفونيا الريفية) La symphonie pastorale (١٩٢٠) نرى جيد ـ وخصوصا فى القصة الأولى ـ يعالج شخصيات تخالف تماما فى تفكيرها ونزعتها ما نراه من الافكار والنزعات فى الاعمال الاولى ٠٠ ذلك ان الاولى استسلام مطلق لنداء الحرية الحســـية ٠٠ أما الثانية فهى استسلام مطلق لنداء العاطفة الدينيـــة ٠٠ فبينما نرى « ميشيل » فى قصة (المتحرر من الاخلاق) ذلك الثائر على نظـام الاسرة الهاجر لماله وزوجته ٠٠ المتمرد على الراحة والاســـتقرار ٠٠ الراغب فى الرحيل الى أبعد مكان ٠٠ الواجد فى الحرية الجسدية والانطلاق الحسى شفاءه العاجل ٠٠ نرى من جهة أخرى « أليسا » فى قصة (الباب الضيق)

تلك الفتاة الوادعة المتقشفة التى تغمرها العاطفة الدينية حتى تدفعها الى رفض الزواج من ابن عمها « جيروم » الذى تحبه لكى تقصر نفسها على الاستسلام لاحساساتها الدينية .. وتقترب من الله الذى تسميه « الأحسن » Le meilleur

ولا شك أن القصصى العبقرى هو الذى يرسم لنا بين حين وآخر صورا انسانيةمتباينة تختلف كل الاختلافعن شخصية راسمها،فعبقرية القصصى تسمو كلما استطاع التجرد من كل مؤثر ذاتى .. وهذا هو ما نراه فى قصتى (سيرافيتس سيرافيتا) و (أوجينى جرانديه) للقصصى العظيم (بلزاك) .. والقصتان تقتربان من حيث تناقض نفسية الشخصيات من قصتى جيد (المتحرز من الاخلاق) و (الباب الضيق) على أن الفرق بين بلزاك وجيد من هذه الناحية أن بلزاك فى قصتيه يرسم لناشخصيات قصصه خارجة عن نفسه .. أما جيد فكل شخصية منشخصيات قصصه عبارة عن فكرة متحركة من أفكاره .. ففى القصتين السابقتين نراه يختفى وراء شخصيتى « ميشيل » و « أليسا » فشخصية « أليسا » هى صدى حياة جيد الطفل الذى نشأ بين أعطاف الدين فطبع حياته كلها بطابع لم يجد جيد وهو رجل سبيلا الى التخلص منه .. وشخصية « ميشيل » هى شخصية جيد الشاب المفكر الذى نظر حوله فوجد ان حياة الزهد الماضية قد حرمته كل متع الحياة .. فلم يجد وسيلة الى التحرر من تراث ماضيه وتعويض ما فقده من العمر فى أحضان الزهد والحرمان .. الا بانكار كل قاعدة أخلاقية .. واستغلال كل دقيقة للتمتع بكل لذة مستطاعة .

وقد يلام جيد ويتهم فنه القصصى بالنقص لانه اختفى وراء كل شخصياته ولم يرسم لنا صورا انسانيةخارجة عننفسه ، شأنالقصصيين العباقرة .. والواقع ان جيد ليس له من النبوغ القصصى نصيب عظيم .. وانما عبقريته الحقة هى فى تلك الدعوة الحارة الى (سيادة الحياة) وفى ذلك البحث المتواصل فى سبيل فهم نفسه والنفس الانسانية .. وفى ذلك الاحتمال الباسل لهذا الكفاح العنيف داخل نفسه بين تربيته وبين تفكيره .. بين العاطفة الدينية وبين التحرر الاخلاقى .. ثم أخيرا فى محاولته الجريئة للتوفيق بينهما كما سنرى .. ذلك كله هو الذى أعطى فن اندريه جيد لونا تجديديا وضاء وأعطى كتبه ذيوعا قل أن صادفناه فى كتب أعاظم الكتاب المعاصرين .. أليس هذا الفن ـ كما يقول الناقد أندريه بيبى ـ خير تعبير عن اضطراب العصر الذى نعيش فيه ؟.. أن فى كل صفحة من صفحاته تجد النفوس القلقة الجامحة مجالا لا مثيل

له لراحتها النفسية • فأندريه جيد يكتب ـ كما يقول ـ : (حتى يجد كل مراهق يصبح فيما بعد مماثلا لى وأنا فى السادسة عشرة من عمرى ـ ولكنه يكون أكثر منى شجاعة وحرية وأعظم كمالا ـ جوابا لسؤاله المرتجف)•

فما هو الجواب ؟

يرى اندريه جيد ـ ويتفق معه فى ذلك مارسيل بروست وبيراندللو ـ أن الشخصية الانسانية ما هى الا وهم زائف ، وان الانسان صنيعة الظروف والاحتمالات ••

ومهما يكن مقدار ما فى هذا الرأى من الحق أو الباطل فقد كان له الفضل الاول فى تجديد القصة الاوربية لما تضمنه من تحطيم فكرة (الاخلاق الثابتة) و (النماذج الانسانية) التى كانت أساس القصة التحليلية فى الادب الغربى ليقيم على أنقاضها أسس فكرة (اللاشعور) قبل العالم (فرويد) نفسه •• كما ان هذا الرأى قد كشف الاثر العظيم للغرائز الجنسية وعدم توازن العواطف فى حياة الاشخاص •• متأثرا فى ذلك بقصص الكاتب الروسى الخالد دوستويفسكى •

على أن ما يمتاز به أندريه جيد عن مارسيل بروست وبيراندللو أنه لا يكتفى بالنظر الى الامور نظرة العالم النفسى •• بل انه يخرج من دراسته (بقاعدة) يرى من الواجب السير عليها فى الحياة ، تلك القاعدة هى وجوب أن يسعى الانسان الى فهم طبيعته وادراك حقيقة نفسه بنفسه وما ذلك الا بالخضوع لكل الدوافع المتنوعة مهما كانت والتذرع بالشجاعة لتحقيق كل ما يجيش فيه من الرغبات دون اختيار ، أى دون أن يقول الانسان لنفسه : هذا متفق مع التقاليد الاخلاقية وهذا مغاير لها . هذا يمس الدين وهذا لا يمسه •• الخ • يجب أن يكون كل منا ـ كما يقول جيد ـ (كطفل ضال ، وجد دون أن تعرف حالته المدنية ، دون أوراق ، قذفه المجهول ، لايعرف له ماضيا ولاقاعدة يسير عليها ولاسندا يعينه ، لا وطن له ولا أجداد) •

ان هذه هى الوسيلة الوحيدة عند جيد لانكشاف حقيقة نفوسنا أمام أعيننا ، وعندئذ نسير على هدى طبيعتنا •

وفى قصته (مزيفو النقود) Les faux-monnayeurs (١٩٢٥) نرى الفتى «برنار» يخاطب القصصى « ادوار » ويسأله النصح كيف يضع قاعدة لحياته ، فيجيبه « ادوار » قائلا :

(ان هذه القاعدة تجدها فى نفسك على أن يكون قصدك السير الى التقدم ·· ليس عندى ما أقوله لك ·· انك لا تستطيع أن تستمد هـذه النصيحة الا من نفسك ·· فلا تحاول أن تتعلم كيف تعيش الا بأن تعيش)

ولكى نعيش – فى نظر جيد – عيشة لا يقيدها قيد يجب ألا نتردد عند الحاجة فى الثورة على نظام الاسرة والجرى وراء احساساتنا تقودنا الى حيث الحقيقة العظمى ·· فالاستقرار هو ألد أعداء جيد ·· اذ رائده أن نكون متأهبين دائما لتغيير جديد فى حالتنا ·

وفى كتابه (الاغذية الارضية) نسمع جيد يخاطب (ناتانابيل) ملقيا عليه تعاليمه قائلا :

(ناتانابيل : اياك أن تستقر فى مكان ، فمجرد أن تغيرت ظروف هذا المكان وأصبحت موافقة لطبيعتك أو جعلت أنت نفسك موافقا لظروف المكان ، عندئذ لا تبقى لك فائدة ترجى من وجودك ، فيجب أن تهجره ·· ليس هناك أخطر عليك من أسرتك ، من غرفتك ، من ماضيك) ·

وفى قصة (المتحرر من الاخلاق) نسمع (مينالك) يقول :

(اننى لا أريد أن أتذكر ، فاعتقادى ان فى هـذا منعا لوصول المستقبل واعتداء على الماضى الذى لم يعد لى فيه حق ·· اننى بنسيانى الكامل للأمس أجدد كل ساعة من حياتى ·· ان كونى كنت سعيدا لا يكفينى لاننى لا أومن بالاشياء الميتة ، وما كنت عليه وزال عنى الآن هو عندى كأنه لم يكن) ·

على ان فكرة جيد عن التحرر المطلق كما رأينا لم تقض على عاطفته الدينية الدفينة ·· بل لقد أحدث عنده هذا الايمـان القوى بالتحرر وبالاستسلام لكل احساس يغمرنا نتيجة عكسية ، اذ جعله يترك العنان لاحساسه الدينى يطغى عليه بين وقت وآخر دون أن يحاول كبته ، فنراه يتكلم عن الله والحياة الخـالدة بأسلوب متصوف زاهد ·· ففى كتابه (الاغذية الارضية) وهو الكتاب الذى ينفجر فيه بالدعـوة الى التمتع بالحياة الحسية ، يقول :

(انك حيثما تذهب لا تستطيع أن تقابل الا الله) وأيضا (ناثانييل: لا تأمل أن تجد الله الا فى كل مكان) وفى كتابه (الاغذية الجديدة) Les nouvelles nourritures (١٩٣٥) يقول :

(يجب أن نفكر فى الله بأقصى ما يمكن من الانتباه واليقظة اننى

عندما أهجر التفكير فى الخالق الى التفكير فى المخلوق تنقطع صلة نفسى بالحياة الخالدة وتفقد حيازتها لمملكة الله) ٠

والآن ، أليس من التناقض مع فكرة التحرر الاخلاقى والدعوة الى التمتع بالحياة أن يغمر جيد احساس أشد المتدينين ايمانا فيفكر فى الله كل يوم ـ كما يقول ـ ولا يستطيع له فراقا ؟

ان جيد يبرر موقفه بفلسفة هى أهم نواحى التجديد فى تفكيره ٠ انه يفصل بين اللذة plaisir والحب amour أو بعبارة أخرى بين الجسد corps والنفس âme لذا نراه يبيح من جهة كل مقتضيات الجسد كما يبيح من جهة أخرى تحقيق كل مقتضيات النفس فى الالتجاء الى قوة عليا ، ولا شك أن رأى جيد هذا لا يتفق مع أية عقيدة دينية ولكنه ـ فى صميمه ـ وحى طابعه الدينى الذى لم يستطع التخلص منه فأراد التوفيق بين احساسه الدينى ومذهبه الفكرى فى التحرر الاخلاقى ٠

وفى العبارة الآتية يعترف لنا جيد ان هذه الناحية من تفكيره كانت خلاصا وتبريرا لما أوقعته فيه مشكلته النفسية ٠٠ يقول :

(أما فيما يتعلق بى فقد قلت مرارا كيف ان الظروف وما تتجه اليه طبيعتى كانت تدعونى الى التفرقة بين الحب واللذة لدرجة انه كانت تؤلمنى فكرة المزج بينهما)

ثم يقول :

(لقد فصلت أنا أيضا بين اللذة والحب ٠٠ بل ان هذا الفصل بين الاثنين قد ظهر لى انه كان لازما ٠٠ فاللذة أكثر نقاء plus pur والحب أعظم كمالا plus parfait)

يرى جيد ان انطلاقنا وخضوعنا لمطالب أجسادنا انما هو نوع من الاخلاص والبراءة innocence وان اجابة الانسان لنداء طبيعته وغرائزه التى ولدت معه انما هو خضوع لارادة الله ٠٠ وما الفرق عنده بين من يجارى ميوله الغريزية وشهواته البريئة وبين من يكبح بعضها الا كالفرق بين (من يأكل كل شىء ومن لا يأكل غير الخضراوات) ٠

ويقول جيد أيضا :

(ليس فى الانسان شىء غير طاهر) Rien n'est impur en soi
لذا كان ما تفيض به طبيعة الانسان من ميول وشهوات لا يجب فى نظره

أن يحمل غير معنى الطهر والنقاء والاخلاص لانفسنا ٠٠ فيجب أن نطيعها دون اختيار (لان كل اختيار هو تحديد لحريتنا) ٠

على ان جيد يشترط لكل عاطفة تحركنا أن تكون مخلصة لكى نطيعها ونجيب نداءها ٠٠ ففى كتابه (اذا لم تمت البذرة) si le grain ne meurt (١٩٢٦) نسمعه يقول :

(ان لذاتى لا تحجب وراءها فكرة خفية ٠٠ ولذا لا ينبغى أن يتبع هذه اللذات أى شعور بالندم) فهو يقصد بذلك أن يقول ان فكرة الحرية والانطـــلاق اذا استترت وراءها فكرة أو غرض معين خرجت عن دائرة البراءة والاخلاص ٠٠

ففى ضـــوء ما ذكرنا نرى ان فكرة اندريه جيد ٠٠ فكرة مزدوجة مضمونها :

أولا ــ الناحية الجسدية الغريزية فى الانســـان ٠٠ وهى الناحية البريئة الساذجة ٠

ثانيا ــ الناحية المعنوية وهى اما الناحية الخاصة بالاحساس الدينى واما الناحية الشيطانية فى الانسان ٠

ففكرة جيد هى الفصل بين هاتين الناحيتين اللتين هما فى الواقع حقيقتان من حقـــائق الطبيعة الانســـانية ــ الناحية الجسدية والناحية المعنوية ــ ثم السمو بهما الى أقصى ما يمكن من الطهر والنقاء ، وما السبيل الى ذلك الا بنبذ كل مالا أساس له من الحق والصدق ، وفى مقدمة ذلك بالطبع كل ما يرغمنا عليه المجتمع ولا يتفق مع المنطق والاخلاص للنفس٠٠ ولقد استخدم جيد فى البداية عبقريته كناقد فذ فى تبرير حقهفى الانطلاق والتمتع بالحياة وفى (الحب الذى لا يجرؤ أن يقول اسمه) على انه فيما بعد صرف همه الىالعناية الشـاملة بكل تقاليد المجتمع وحقائقه الفارغة وأوهامه لكى يعمد بعد ذلك الى تنقيحها أو هدمها من أساسها ٠٠ فنراه مثلا يهاجم فكرة الحمـــاية الادبية ٠٠ ويطعن فى أنظمة التربية ويفضح مظاهر الرياء فى الطبقة البورجوازية ٠٠ الى غير ذلك مما يراه من المفاسد الاجتماعية التى تقف حائلا بين الانسان وبين حريته التامة ٠

كانت « فردية » جيد سببا فى أن يبقى حتى الثامنة والخمسين من عمره بعيدا كل البعد عن الاهتمام بالشئون العامة أو الايمـــان بعقيدة سياسية أو اجتماعية على اعتبار أن الاصغاء لأفكار الغير يحد أو يغير من

أفكار الانسان الخاصة التى يجب أن تكون بعيدة عن كل تأثير خارجى ٠ وأندريه جيد فى عزلته السياسية والاجتماعية كان يخالف تماما كثيرا من الكتاب الفرنسيين المعاصرين مثل أناتول فرانس وشارل موراس وموريس باريس وشارل بيجوى ورومان رولان ٠٠ وغيرهم ، ممن اختلفت مشاربهم فى السياسة والاجتماع ٠

على ان جيد بعد رحلة الى الكونغو وأواسط افريقية خرج مرة واحدة من دائرته الخاصة الى دائرة المجتمع الانسانى بأجمعه ، يفكر فى ظروف الحياة فيه بعين تفيض بالرحمة الواسعة والحنان العظيم ٠٠ حتى ان المرء ليحس بأن جيد قد نسى نفسه ولم يعد يفكر الا فى الآخرين ٠

وفى كتابيه (رحلة الى الكونغو) (١٩٢٧) و (العودة من تشـاد) (١٩٢٩) نرى جيد يدافع عن الأمم المستعمرة ويطالب بحق هذه الأمم فى التقدم المطرد فى جميع شئون حياتها ، مسفها كل استعمار ينتهك حرمة هذه الحقوق المقدسة ٠

ولكن هل بقى جيد عند هذا الحد من الاعتدال فى تفكيره وهو الذى من دأبه السير الى أقصى حدود التطرف ؟ لا ٠٠ اذ لم يكد ينقضى وقت يسير حتى رأينا جيد يعلن ايمانه بالاشـتراكية التى اعترف بانه عند اعتناقها كان يجهل صميم نظرياتها ٠٠ ولاشك ان اعتناق جيد للاشتراكية مخالفة تامة لأسس تفكيره السابق ، لان جيد « الفردى » قد أصبح يؤمن بنظام يقيد مصلحة الفرد فى سبيل مصلحة المجموع ، وجيد الثائر على أى نظام من أنظمة التربية على اعتبـار ان التربية تقييد وتحديد قد أصبح يؤمن بالمثل العليا الاشتراكية ، وجيد الذى كان ألد عدو للعقيدة الثابتة dogme قد أصبح ايمانه بالاشتراكية تسليما منه بالنظريات الماركسية كنظرية (التفسير المادى للتاريخ) مثلا وغيرها ٠٠ بيد اننا لا نستطيع أن نغفل أيضا ان فى الاشتراكية تتحقق معظم أفكار جيد وآماله ، ففيهـا شرود نهائى من ماضيه الدينى الذى أثقله زمانا طويلا ، وفيها التخلص من عبودية نظام الاسرة الذى طالما حاربه وناضل فى سبيل القضاء عليه٠٠ وفيها أمل جديد فى الوصول الى مايسميه جيد (مملكة الله) Le royaume de Dieu أى قتـل الجوانب الخبيثة فى الانسـان بالتخلص من كل

أنانية والتحرر من كل تفكير ذاتى ٠٠ وهو يرى فيها أيضا الشفقة الزائدة والتفكير الجدى فى محو الشقاء الانسانى ٠٠

ولقد أحدث انضواء جيد تحت راية الاشتراكية ضجة كبيرة وابتهاجا من رجال الفكر اليساريين ٠٠ اذ اعتبروا انضمامه الى صفوفهم فوزا مبينا ونصرا عظيما لعقيدتهم وذلك نظرا لشهرته فى عالم الفكر والادب ٠

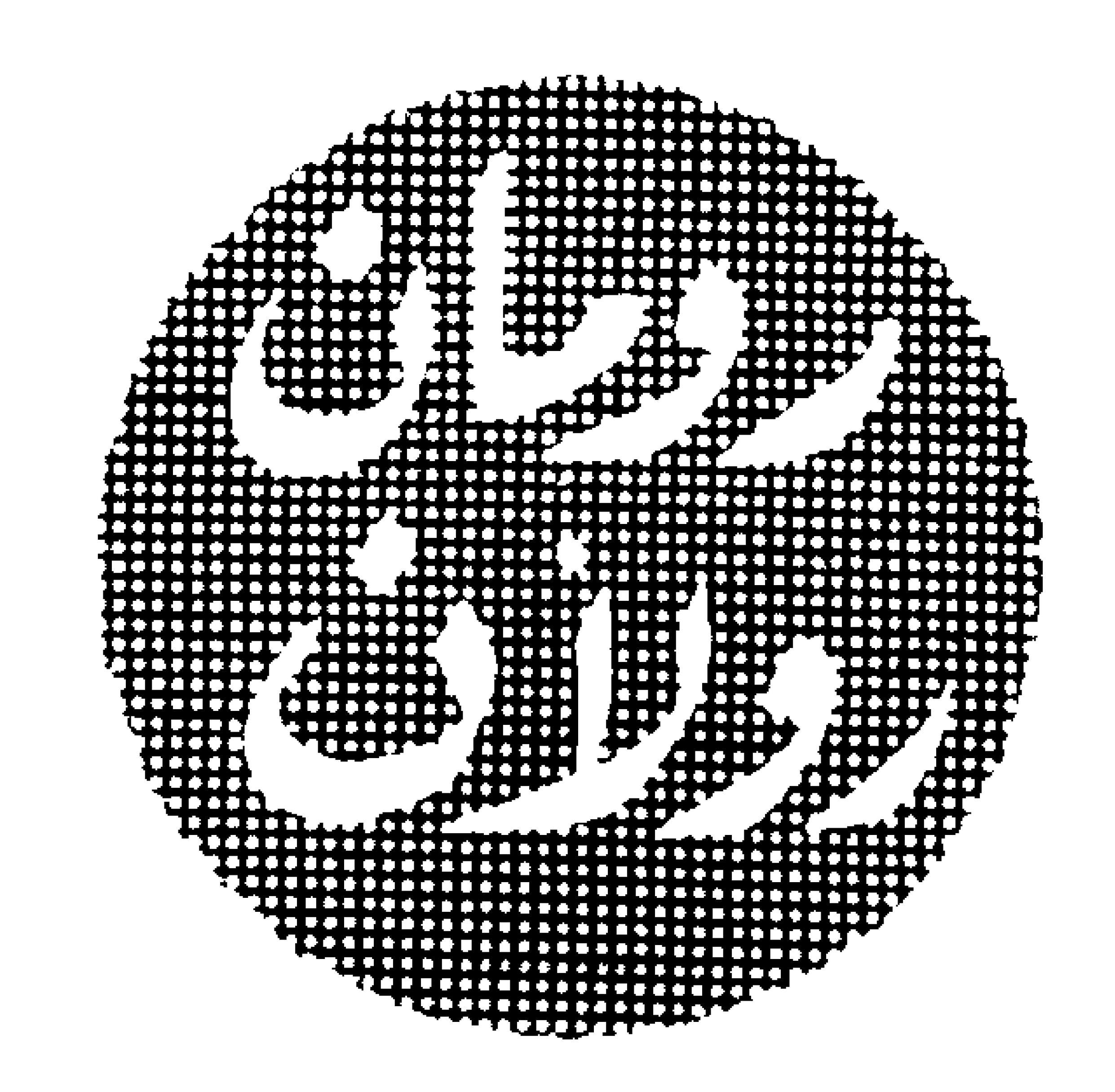
وسافر جيد الى روسيا عام ١٩٣٦ بعد اعلان عقيدته الجديدة وعاد منها ليكتب كتابه (عودة من روسيا) الذى امتدح فيه النظام السوفيتى فيما يختص بحياة الطفولة والشبيبة وأنظمة تربيتها ٠٠ ولكنه انتقد كثيرا من جوانب الحياة فى روسيا ووسائل تطبيق المبادىء الاشتراكية فيها ٠ وسرعان ما خابت فيه آمال من هللوا وطبلوا عند انضوائه للعقيدة الجديدة وعادوا الى مهاجمته مهاجمة مريرة متهمين اياه بأنه لم يستطع بعد أن يتحرر تحررا كليا من «فرديته» السابقة و «بورجوازيته» فأجاب على هذه الانتقادات بكتاب ثان هو (عودة الى العودة من روسيا) يرد فيه على ماوجه اليه من نقد ويؤكد أنه على عقيدته الجديدة راسخ الايمان ، وان ماوجهه الى النظام فى روسيا من نقد لا ينفى ايمانه بالاشتراكية وان غرضه الوحيد من هذا النقد هو ـ كشيمته دائما ـ السعى الى الكمال المطلق والاحتفاظ باستقلال رأيه ٠

لعل مظـــاهر التقلب والقلق الدائم وعدم الاستقرار التى صاحبت حياة جيد ومؤلفاته عشرات السنين ٠٠ والتى كانت موضع نقد الناقدين هى أعظم مايرفعه (كانسان) لانها نتيجة تغلغل عاطفة الحرية فى دمه الى حد قل أن يكون له نظير ٠٠ فظل طول حياته (حديقة من التردد) ـ كما سماه أكبر اتباعه الكاتب الفرنسى جاك ريفيير ـ لا يهدأ له بال ، يدرس الحياة بنواحيها الفكرية والحسية ، يسافر الى أقصى البلاد ٠٠ كل ذلك لكى يصل الى الحقيقة المنشودة التى يسعى وراءها ٠٠ وبرغم عبء ماضيه الدينى الثقيل فقد استطاع أن يحطم اغلاله وينطلق باحثا منقبا ٠٠

اننا حين نحكم على أندريه جيد يجب أن ننظر الى مجموع شخصيته وتفكيره وأهدافه التحريرية البعيدة المرمى التى تنبض بها عشرات أعماله الخالدة ٠٠ لقد علمنا جيد كيف ننتصر على الخجل المقيت والرهبة البغيضة

التى لا معنى لها ٠٠ علمنا كيف نكشف دخائل نفوسنا ولا نتركها فى الظلام الدامس لا نعرف كنهها كأن ليس لنا بها صلة ٠٠ علمنا كيف نسلط عليها ضوءا وهاجا نستمده من صميم ارادتنا وشجاعتنا ٠٠ علمنا كيف نصرح بكل ما يجيش فى خفايا قلوبنا من النزعات الصارخة ٠٠ علمنا كيف ومتى نعرف حقيقة نفوسنا ، ليس بالاستسلام لغرائزنا الحيوانية كما يتهمه أعداؤه ظلما ٠٠ بل بأن نساير طبيعتنا مهما كانت باخلاص عظيم ، سواء ما كان منها خاصا بالناحية الحيوية أو بالناحية الروحية وأن نكون دائما على أهبة لمواجهة الحياة المتغيرة ومجاراتها على الدوام فى قالب جديد ٠




رمان

قبل اشتعال الحرب العالمية الثانية كان رومان رولان يطالع علينا بين وقت وآخر من اعماق عزلته فى سويسرا بعيدا عن وطنه فرنسا بكتاب أو مقال جديد فيشعر من قرأ لهذا الاديب العظيم بحنين زائد الى قراءة هذا الكتاب أو هذا المقال ... ذلك ان رومان رولان .. كاتب عالمى الفكر والعاطفة لا يكتب لأمة معينة ولا لشعب خاص بل يكتب للعالم أجمع ناظرا اليه كأسرة انسانية واحدة لا تمزقها حدود ولا تفرقها لهجات .. ولا تبذر بذور الحقد والضغينة فى قلوب اعضائها فكرة الاجناس .. لذا كان رومان رولان من احب الكتاب المعاصرين الى كل قلب رحيم ونفس واسعة الآفاق .. وكتابه الشهير عن (المهاتما غاندى) يقربه الى قلوبنا نحن الشرقيين لانه وقف فيه موقف المدافع القوى عن الحركة الهندية وشعبها المجيد المهضوم .. كاشفا القناع عن فضائح الغرب وآثامه فى قتل امة عظيمة بلغت مئات الملايين والوقوف فى وجهها بالالتجاء الى البطش الخسيس حين تنهض مطالبة بحقها فى الحياة .

ولا عجب أن يبدو ذلك من رجل مثل رومان رولان لم تكد تعلن الحرب العالمية الاولى ـ وكان وقت ذاك فى جنيف بسويسرا ـ حتى اخذ يكتب سلسلة مقالات ملتهبة بالعاطفة الانسانية .. مطالبا فيها بالمبادرة بحقن الدماء وعودة السلام وانقاذ أرواح الشباب البرىء الذى يلعب بعقله محترفو السياسة ، مستغلين حرارة قلبه وسمو نفسه فى سبيل جشع اصحاب مصانع السلاح ودجل رجال الحكومات من صنائع التوسع الاستعمارى .. ولقد آثر رومان رولان عداء الرجعيين من ابناء وطنه والصحافة المادية المغرضة التى أثارت عليه الرأى العام على ان ينزل عن حريته فى الفكر والقول .. عن انسانيته التى هى ثروته الكبرى .

ولد رومان رولان فى بلدة كلاميسى فى اليوم التاسع والعشرين من شهر يناير سنة ١٨٦٦ من أسرة ريفية بورجوازية عريقة القدم • وتعلم أولا فى البلدة التى ولد بها • • ثم انتقل الى باريس عام ١٨٨٦ حيث التحق بمدرسة النورمال العليا .. وفى عام ١٨٨٩ نجح فى امتحان الاجريجاسيون فى التاريخ والفلسفة وفى عام ١٨٩٥

حصل على شهادة الدكتوراه فى الآداب برسالة قدمهـا عن (اصـول المسرح الغنائى الحديث) وعين بعد ذلك أستاذا لتاريخ الفن فى مدرسة النورمال العليا ، ثم عين أسـتاذا فى السـوربون حيث ادخل مـادة (تاريخ الموسيقى) وبقى فيها حتى عام ١٩١١

ابتـدأ رومان رولان حياته الادبيـة بكتابة عدد كبير من القصص المسرحية ، ولم يكن ذلك منه عفوا بل كان تنفيذا لفكرة مختمرة فى نفسه عن وجوب تجديد الفن المسرحى بالطريقة التى شرحها فى سلسلة مقالاته التى كتبها بعنوان (مسرح الشعب) Théâtre du peuple (١٩٠٠)

كتب رومان رولان من هـذه القصص المسرحيـة : سان لويس (١٨٩٧) ـ والذئاب (١٨٩٨) ـ وانتصـار العقـل (١٨٩٩) ـ ودانتون (١٩٠٠) ـ و ١٤ يوليو (١٩٠٢) ـ وانتصار الحرية (١٩١٧) الخ ..

وفى مقالاته عن (مسرح الشعب) نادى رومان رولان بان يكون المسرح متحررا من بورجوازيته أى من اقتصاره على رسم الوان الحياة الدائرة بين الطبقة الوسطى والغنية ومن وجهة نظرها الخاصة .. ذلك ان الطبقات لا تكون الا جزءا من الامة .. فاقتصار الكتاب المسرحيين عليها فى موضوعاتهم يحرم المسرح من ان يكون معبرا عن روح الشعب الحقيقية وآماله التى لا نلمسها الا فى الطبقات الفقيرة وهى الكثرة فى كل شعب .. كذلك هاجم رومان رولان المسرح الكلاسيكى والمسرح الرومانتيكى داعيا الى ان يكون الفن المسرحى صدى لتفكير العصر الذى نعيش فيه ، وان يكون ممهدا الطريق لمجتمع جديد .. وبرغم ان رومان رولان بقى حتى الحـرب العالمية الاولى لا يعلن تفكيره السـياسى فان كل كتبه كانت تفيض بتمجيد الحرية والاحرار وبنزعة انسـانيـة فياضة.. ولقد كان هذا المجتمع الجديد الذى يرمى الى التمهيد له هو ذلك الذى تحيا فيه الطبقات الفقيرة المهضومة حياة حرة كريمة وتجد بين أحضانه أكبر قدر من الحنان والتقدير .

على اننا ونحن فى انتظار ذلك اليوم المطوى فى ثنايا الغيب يرى رومان رولان وجوب أن نعد الشـعب لتقبل ذلك المجتمع الجـديد .. وما ذلك الا بأن نهيىء الفرد لبـلوغ أعظم درجة مستطاعـة من الـكمال الانسانى حتى يقابل كل تطور جديد بقلب مفتوح وصبر جميل .. ولذا

نرى رومان رولان (اخلاقيا) يطالب الفرد بان يكون قوى الخلق عظيم النفس .. حنون القلب .. محبا لكل الناس .. راغبا فى معرفة كل شىء ... مستعذبا التضحية فى سبيل الفكرة السامية ، فبهذا وحده نستطيع أن نقبل راضين مجتمعا جديدا مترفعا عن الدنايا .. كارها لضروب الرياء الذليل . بعيدا كل البعد عن الانانية الحيوانية .. ولهذا أيضا كان رومان رولان يهيم بحياة الابطال الذين يرى فيهم مثلا أعلى لما يجب ان يكون عليه الفرد من الفضائل .. فنراه يكتب - كما ذكرنا - قصتيه المسرحيتين (سان لويس) و (دانتون) . ثم نراه يكتب بعد ذلك ثلاث تراجم بعنوان (حياة الرجال المشهورين) Vies des hommes illustres أولاهما عن (حياة بيتهوفن) Vie de Beethoven (١٩٠٣) والثانية عن (حياة ميشيل آنج) Vie de Michel Ange (١٩٠٦) والثالثة عن (حياة تولستوى) Vie de Tolstoi (١٩١٣) ثم أخيرا كتابه الذائع الصيت عن (مهاتما غاندى) Mahatma Ghandi (١٩٢٦)

ويرى رومان رولان اننا فى عصرنا الحاضر احوج ما نكون الى دراسة اولئك الابطال (لان أوربا الآن يغشاها جو خانق مفعم بالرذيلة، اذ طغت المادية الوضيعة على الفكر .. أن العالم يختنق فلنفتح النوافذ حتى يدخل الهواء الطلق العليل .. فلنستنشق نفثات الابطال) .. وما هؤلاء الابطال الا أولئك الذين نرى فيهم - كما يقول رومان رولان - (روح البطولة .. ورجاحة العقل .. والابتسامة الدائمة .. وشهوة النور والمعرفة .. تلك الصفات التى نراها فى فرنسا فى رابليه وموليير وديدرو ، وبين الموسيقيين نستطيع ان نقول بيرليوز وبيزيه لانه لا يوجد خير منهما)

على ان رولان يرى فى بيتهوفن وميشيل آنج وتولستوى عبقرية لم يجدها فى أبناء وطنه .. فيرى فى بيتهوفن الشخص (الذى منه تنتقل عدوى الشجاعة الخارقة والاحساس بالسعادة فى الكفاح وتغلب الضمير الذى يشعر فى نفسه بأنه اله) ويرى فى تولستوى (ذلك النور الذى انطفأ والذى كان لابناء جيلين أطهر نور أضاء شبابهم) وهو يجد فيه أيضا (ذلك الصديق الحقيقى الوحيد بين كل رجال الفن المعاصر) ولسنا فى حاجة الى تأكيد الصلة الوثيقة بين تولستوى ورومان رولان .. اذ أن تولستوى هو من أوائل الكتاب

المحدثين الذين طالبوا بأن تكون رسالة الفنان مثالية .. وهذا هو اظهر ما يميز فن رومان رولان ودعوته .

ونحن اذا نظرنا الآن الى هؤلاء الثلاثة الذين يمجدهم رومان رولان رأينا أن اولهم ألمانى والثانى ايطالى والثالث روسى ..

فكأنه لم يجد بين أبنـاء وطنه مثله الانسانى الأعلى .. لذا كان ذلك داعيا الى ان يجد رومان رولان عددا ليس بالقليـل من النقـاد الفرنسيين يتهمونه بانتقاص العبقرية الفرنسية والطعن فيها ..والواقع ان رومان رولان كان دائم اللوم لابناء وطنه على (شدة تأثرهم بالاوهام الخداعة التى تصوغها الخطب الرنانة) وكان يصرح دائما (بكرهه لذلك النوع الجبان من المثل الاعلى الذى يدير العيون عن بؤس الحياة وضعف النفس . ان البطولة الكاذبة جبن ونذالة .. فليس هناك الا نوع واحد من البطولة .. تلك هى التى ترى الحياة كما هى وتحبها) .

ولقد اراد رومان رولان ان يرسم صـورة خيـالية تتجمع فيها فضائل أبطاله السابقين فكتب قصة (جان كريستوف Jean Christophe (١٩٠٤ ـ ١٩١٢) وبطلها وهو جان كريستوف موسيقى ألمانى (تغلغلت فيه نفس بيتهوفن العظيمة فصلبت أعضـاءه ونفسه وبدت كأنما جعلت حجمها ضخما هائلا .. لقد كان يتجه نحو العالم .. كان كجبل شامخ تدوى بين أرجائه العواصف .. عواصف الحرارة والحماسة .. عواصف الهم الدفين .. آه ! يا له من هم ! . على ان ذلك لم يؤثر بشىء ! كان يحس بنفسه وافر القوة ! . والعذاب ! . العذاب أيضا ! . آه ! . ماأجمل أن يكون المرء قويا .. ما أجمل أن يتعذب المرء عندما يكون قويا ..)

وقصة (جان كريستوف) تقع فى عشرة اجزاء .. وهى اقرب الى ان تكون ترجمة لشخصية خيالية من ان تكون قصة وهى ـ كسائر اعمال رولان ـ تفيض بالضمير الحى والحب النبيل والموسيقى الرائعة .

وليس اعجاب رومان رولان ببيتهوفن مقصورا على كونه نموذجا للبطل الذى ينشده مما دفعه لان يرسم شخصية جان كريستوف مماثلة له ، بل أيضاً لانه (امام الموسيقيين) و (الموسيقى الالهية) عند رولان كأبطاله بمثابة (الضوء الذى ينير حياته) ولقد رأينـا كيف كان له الفضل فى ادخال مادة (تاريخ الموسـيقى) فى السـوربون حين عين أستاذا فيها كما انه كتب فضلا على دراسته الخالدة عن بيتهوفن عدة

دراسات أخرى فى الموسيقى منها (الموسيقيون القدماء Musiciens d'autrefois (١٩٠٨) و (الموسيقيون المعاصرون) Musiciens d'aujourd'hui (١٩٠٨) و (هيندل) Haendel (١٩١٥) ذلك أن رومان رولان يرى ككاتب اخلاقى ان الموسيقى خير مهذب للنفوس المريضة واعظم حافز للعواطف الخامدة ، كما أن الموسيقى العبقرى يستطيع ان يجعل موسيقاه خير تعبير عن روح العصر وآماله وظروفه الملموسة.

وفى (النهار الجديد) La nouvelle journée (١٩١٢) وهو آخر جزء من قصة (جان كريستوف) كتب رومان رولان يقول (ان أوربا الآن توحى للناظر كانها فى ليلة حرب) كتب ذلك قبل أن تعلن الحرب العالمية الاولى بعامين .. وعندما اندلعت الشرارة الاولى كان رومان رولان فى سويسرا .. فكان بعده عن وطنه مساعدا له على أن يكون حر الرأى بعيدا عن التأثر بضروب الدعاية المختلفة التى كان يصيح بها ساسة الدول المتحاربة ... ومنها فرنسا .. تبريرا للحرب وحثا للناس على خوض غمار القتال (كانقاذ المدنية) أو (الحرب من أجل السلام الخالد) الى غير ذلك من الاقوال التى لم تثبت الحوادث غير بطلانها .

ومنذ التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٩١٤ شرع رومان رولان يكتب سلسلة مقالات فى « جريدة جنيف » بدأها بخطاب مفتوح الى الكاتب الالمانى هوبتمان .. مستنكرا الوحشية الالمانية التى أحرقت بلدة لوفان البلجيكية وقال (كثير منكم أن يبدو ذلك العنف الذى تعاملون به هذه الامة الكبيرة النفس - يقصد بلجيكا - التى لا ذنب لها الا الاستماتة فى الدفاع عن استقلالها وعن الحق كما فعلتم أنتم الالمان عام ١٨١٣ .. احتفظوا بهذه القوة لنا نحن الفرنسيين أعداءكم الحقيقيين .. اما أن تتحمسوا ضد ضحاياكم .. ضد ذلك الشعب البلجيكى الصغير السيىء الحظ فياله من عار ؟ .

ثم يقول (ولم تكتفوا بأن تأخذوا البلجيك الحية بل أعلنتم الحرب على الاموات .. على مجد القرون .. فامطرتم مالين بالقنابل واحرقتم روبان واصبحت لوفان تلا من الرماد .. لوفان بكنوزها الفنية وعلمها .. لوفان المدينة المقدسة .. هل تحاربون الجيوش أم الفكر الانسانى ؟ اقتلوا الرجال لكن احترموا الاعمال الفنية .. انها تركة الجنس البشرى الذى انتم منه والذى نحن جميعا الأمناء عليه

.. انكم حين تحطمونه كما تفعلون الآن تثبتون انكم غير جديرين بذلك التراث العظيم) .

وفى مقالتــه الثــالثة (فـوق المعركـة) Au dessus de la mêlée التى اطلق عنوانها على مجموعة المقالات حين جمعها فيما بعد فى كتاب .. نسمع رومان رولان بوجه اللوم الشديد الى قادة الرأى العــام والرؤساء الدينيين والمفكرين وخطباء المنابر قائلا ..

(بين أيديكم ثروات حية ، كنــوز من البطولة .. فمــاذا فعلتم بها ؟ لقد وجهتموها الى الصراع والموت)

ثم نراه يظهر استنكاره المرير من ان تنتقل شهوة رجال السياسة الى رجال الفكر .. فتتولد بينهم العداوة (فيصبح أوكن ضد برجسون وهوبتمان ضد مترلنك ، ورولان ضد هوبتمان ، وولز ضد برناردشو كمـا يتغنى كيبلنج ودانونزيو دو رينييه وباربس ومترلنك بأغــانى الحرب والقتال فى حين يطلب الفيلسوف الشيخ فنديت الذى بلغ من العمر الثــانية والثمــانين بصوته المحطم من طلبــة جامعــة ليبزج الاشتراك فى « الحرب المقدسة ») .

وفى هذا المقال أيضا صرح رولان :

(ان الباعث الحقيقى على الحرب .. العدو الألد .. ليس خارج حدود الوطن بل هو رابض داخل كل أمة .. انه ذلك الأخطبوط الذى يسمى التوسع الاستعمارى .. تلك الارادة فى الكبرياء والتسيطر التى تريد أن تمتص كل شىء .. فاما الخضوع لها واما الهدم .. تلك الارادة التى لا تحتمل مطلقا أية عظمة ونمو خارج دائرتها)

وبعد أسبوع من معركة المارن أعلن رومان رولان فكرته العالمية (ووجوب اقامة المدينــة الواسعة الممتدة الاطـراف التى تزال منهــا المظالم وأحقاد الامم وتجتمع فيها النفوس المتآخية الحرة فى العالم اجمع) .

لقد رأينا كيف ان رولان فى مقالاته كان متجردا من كل خضوع للوطنية العمياء أو التأثر بتيار الحماسة الذى كان يجرف امته كما كان يجرف كل الامم المتحاربة .. ولذا لم يتردد ــ كما رأينــا ــ فى السخرية من رجال الفكر والدين الذين خانوا مبادئهم النبيلة فى الوقت الذى كان يمكنهم فيه تأدية اكبر جانب من مهمتهم فى الحياة .. كما

انه لم يتردد فى اظهار ألمه من تردى العلم فى حمأة الاغراض حين يدعى الاستاذ بيربيه مدير المتحف وعضو أكاديمية العلوم فى باريس أن البروسيين لا ينتمون الى الجنس الآرى .. كذلك كان من الاسباب التى زادت عدد مهاجميه احتفاظه بعد ان اعلنت الحرب .. بصداقة من كان يعرفهم من الكتاب الألمان ، اذ ليس حبى لوطنى ـ كما قال ـ معناه أن أكره أناسا مخلصين يحبون هم كذلك أوطانهم) .

كل هذه الاسباب الى جانب التهم التى وجهت اليه قبل الحرب عن طعنه فى العبقرية الفرنسية .. جعلت عددا من جرائد بلاده ينشر مقتطفات محرفة من مقالاته ليثير عليه الرأى العام .. ولقد استطاعت هذه الصحافة المغرضة بلوغ ما أرادت الى حد كبير فكان جواب رولان على هذا أن جمع مقالاته فى كتاب مستقل فى سبتمبر عام ١٩١٥ حتى يطلع الشعب الفرنسى بنفسه على حقيقة ما كتب ليعرف نصيب اتهامات اعدائه من الحق أو الضلال .. وقد قال فى مقدمة كتابه ما يأتى :

(اذا باغتت الحرب شعبا عظيما فليس عليه فقط ان يدافع عن حدوده .. بل أمامه عقله أيضا يجب ان يحميه من الخرافات والخروج عن العدل ومن السخافات . تلك الامور التى تطلقها من عقالها المصيبة العظمى .. لكل شخص مهمته . فكما ان على الجيوش ان تحافظ على أرض الوطن .. كذلك على رجال الفكر الدفاع عن الفكر .. فاذا سخروه لخدمة شهوات الآخرين فقد يستطيعون ان يكونوا آلات نافعة ولكنهم يخاطرون بخيانة العقل الذى ليس هو أقل جزء من تراث شعبهم) ..

ثم يقول فى النهاية :

(لقد ظللت عاما بأكمله غنيا بالاعداء .. والآن أقول لهم انهم يستطيعون أن يحقدوا على ولكنهم لن يستطيعوا ان يعلمونى ان أكون حقودا . ان مهمتى ان أقول ما أعتقده عدلا وانسانيا) .

والواقع ان التهم التى اسندت الى مقالات رومان رولان فى (جريدة جنيف) لا أساس لها من الصدق .. اذ خلقتها من جهة عداوة بعض الافراد والجرائد من دعاة الحرب والوطنية الزائفة التى تخفى وراءها المصالح الخاصة ومن جهة اخرى الرقابة على المطبوعات ابان الحرب التى كانت حين تحذف من مقالاته كثيرا من الفقرات التى ترى

فيها تطرفا لا يجوز نشره .. تترك بذلك المجال لأعدائه لتأويل الجــزء الضئيل الباقى تأويلا سيئا .

وعلى كل حال فقد كان هذا الصراع الهائل بين رجل وامة داعيا لان تتسع شهرة رومان رولان بعد الحرب .. خصوصا وقد حصل عام ١٩١٦ على جائزة نوبل للآداب ٠٠ وكانت شهرته خارج فرنســا أوسع منها داخل فرنسا نفسها ٠ وقد قوبلت كتبه التى ظهرت بعــد الحرب بشغف زائد واقبال عظيم .. فطبعت عشرات الطبعات .. ومن هذه الكتب . (الى الشعوب المقتالة) Aux peuples assassines (١٩١٧) و (كلــيرامبــو) Clérambout (١٩٢٠) و (الرواد) Les précurseurs (١٩٢٤) وغيرها ٠

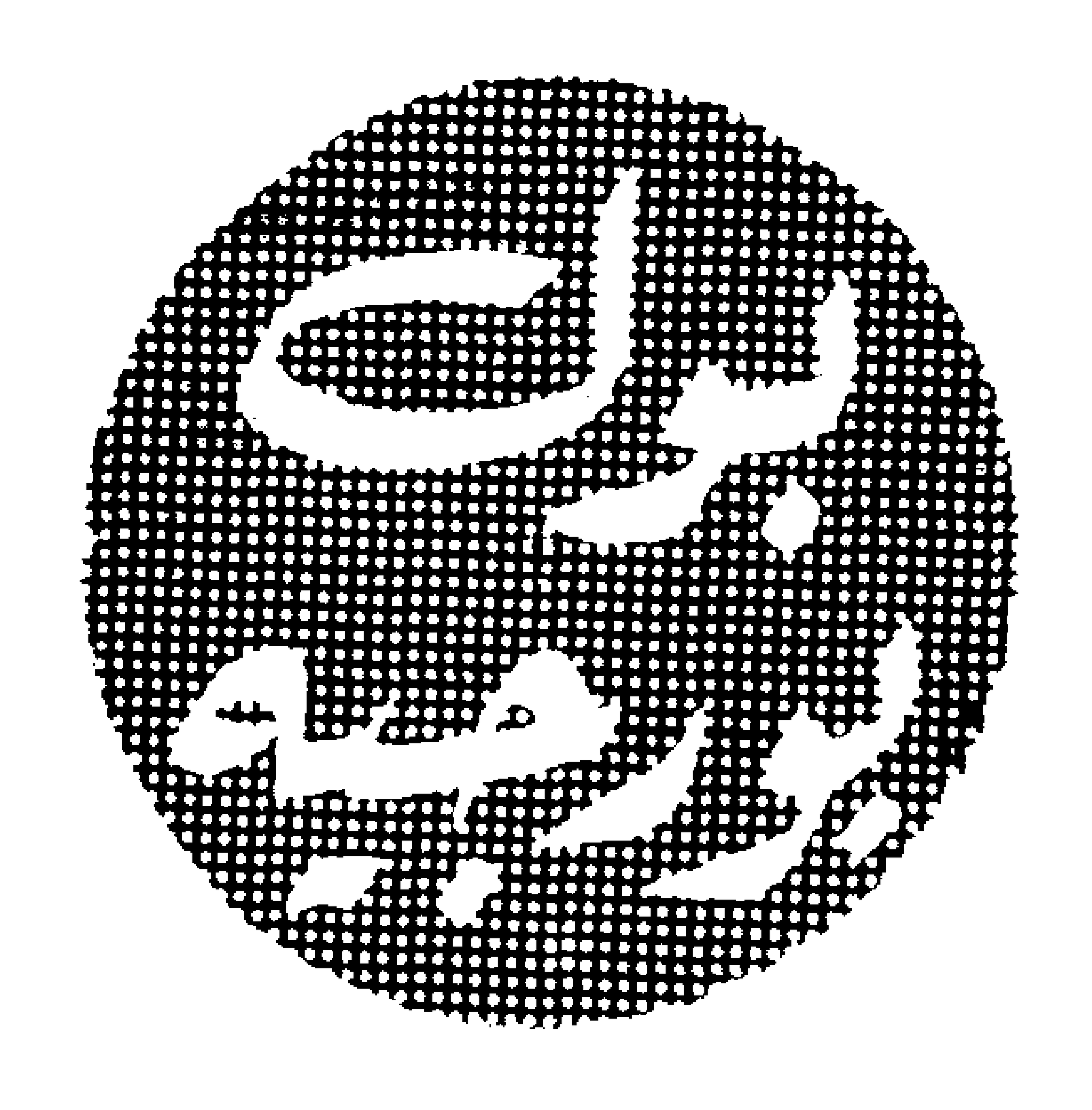
ولقد ظل رومان رولان يعيش فى سويسرا متخذا اياها وطنــا ثانيا له ، محافظا كل المحــافظة على تفــكيره وآرائه التى أثارت عليه الحملات غير عابىء بها ، مؤمنــا بذلك الاحســاس الذى دفعه الى ان يقول فى أثناء الحرب فى احدى مقالاته تحت عنوان (خطاب الى متهمى)

(ان الوقت الذى يخصصه للرد على خصم ما انما يعتبر كسرقة من أولئك التعساء ٠٠ أولئك السجناء ٠٠ من تلك الأسر التى تســـعى ونحن فى جنيف ان نمد لها ايدينا) .

ويرى الناقد (رونيه لالو) ان هذه الصلابة الشديدة التى نجدها عند رومان رولان فى التمسك برأيه والاحتفاظ بنقاء ضميره كرجل مثالى قد آذته الى حد ما كفنان اذا أفقدت قصصه كثيرا من الليــونة والطراوة .. على أن هذا الاخلاص لعقيدته بين عواصف الافتراء الكاذب وذلك الاحتمال الباسم للاضطهاد الذى بعثته النفوس الصــغيرة وتلك السعادة فى العذاب التى انعكست عليه من أبطاله بيتهوفن وتولســتوى وغاندى .. قــد جعلت جميعــا منه أحد أعاظم قادة الفــكر الأوربى الحديث .

لقد صبر رومان رولان وتحمل كثيرا من طعنات أعدائه . وكأن الزمن قد اراد أن يثبت براءته من محاباة الفكر الالمــانى على حساب الفكر الفرنسى وذلك بظهور النازية فى ألمانيا ٠٠ اذ سرعان ما امتشق رومان رولان الحسام لمقاومتها مر المقاومة .. معلنا عداوته لكل نظام أوتوقراطى يمتهن كرامة الشعوب .. مبينا أن الفكر الالمانى — الذى

مجده ولا يزال يمجده ــ انما هو ذلك الفكر الحر المنادى بالمساواة بين الامم الداعى الى خير البشرية ٠٠ وهو الفكر الذى شردت النازية رجاله من أبناء ألمانيا نفسها بين أرجاء العالم أمثال توماس مان وأنا زيجرس وارنست تولر وغيرهم .. لانهم أبوا أن تحكم بلادهم حكما استبداديا لا حرية فيه .. ولقد كان جزاء رومان رولان نفسه ــ على عالمية تفكيره ونشاطه المتواصل قبل اعلان الحرب الاخيرة فى محاربة الفاشية وجرائمها ــ أن ألقى الهتلريون القبض عليه بمجرد غزوهم لفرنسا ، ثم أرسلوه الى معسكرات الاعتقال فى ألمانيا حيث زج به فى شيخوخته بين جدرانها المظلمة مما عجل بموته بعد بضعة أسابيع من تحرير فرنسا بعد أن سجل اسمه بحروف من نور فى صفوف قادة الفكر الحديث.. المدافعين عن السلام .. المحبين لخير الانسانية وسعادتها .





كان بورجيه بين الكتاب المعاصرين أحد أولئك النفر القليلين الذين بحكم حياتهم الادبية المديدة قد عاصروا الجيل الحاضر والجيل الذى قبله .. ذلك أن بورجيه الذى ولد عام ١٨٥٢ قد أخرج للنـاس أول كتاب له وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، فتاريخ الادب قد ذكر اسمه بين كتاب القرن التاسع عشر الذى قضى فيه مايقرب من خمسين عاما من حياته قبل أن يذكره المؤرخون الحديثون فى عـداد الكتـاب المعاصرين .. وكما كان بورجيه بحكم شيخوخته الادبية ليس أديبـا معاصرا فقط .. كذلك كان بحكم تفكيره مفكرا لايعيش فى العصر الذى نعيش فيه ، فقد ظل بورجيه حتى موته عام ١٩٣٦ يحيا بأفكاره فى شبه عزلة .. يستمد لها الوحى والالهام من كتب القرون الغابرة .. ظل حتى موته يؤمن بالملكية المطلقة وسلطة رجال الدين ويدعو الى العودة اليهما فى شعب جرت مبادىء الديمقراطية فى دمه وروحه .. من هاتين الناحيتين يختلف بول بورجيه عن ذلك العدد الزاخـر من الكتـاب المعاصرين الذين ترعرعوا فى ظل العصر الجديد .. فمنهم من احتفظ فى آدابه بفكرة (الفن للفن) وبقى بعيدا عن محيط الحياة الصاخب ، ومنهم — وهم الغالبية — من أبت شدة احساسه وقوة شخصيته أن يعيش الى النهاية على هامش الحياة فنزل الى معتركها .. ولما زلزلت آذانه صرخات الصرعى وأوجاع المتألمين فى مجتمع يعج بالنقائص تردد الصدى فى فنه الخالد .. واذا بالقلم بين يديه كالمعول بهدم به الطالح ويبنى الصالح .

على أن بورجيه كان يتفق والكتاب المعاصرين من حيث محـاولة اقامة فنه القصصى على أساس علمى .. فقصصه جميعا تدور حـول تحليل العواطف الانسانية المتضاربة وغرائزها الاولى وخصوصا الغريزة الجنسية .. وهو فى فنه دقيق الملاحظة عظيم القدرة على التعمق فى خفايا النفس .. ولعل هذا هو السبب فى أن القارىء الذى لم يرزق طول الاناة والصبر على قراءة القصص التحليلية لايلبث أن يشعر بالملل والسأم عند قراءته .. اذ أن كل انتاج بورجيه القصصى برغم غزارته ماهو الا وصف وتحليل حالات متنوعة من النفس البشرية ..

ولقد بدت ظاهرة التحليل النفسى الطاغية على فن بورجيه فى أول أعماله الادبية حين بدأ حياته الكتابية بنشر مجموعة شعرية سماها (على شاطىء البحر) Au bord de la mer (١٨٧٣) ثم أتبعها بأخرى عنوانها (الحيـاة القلقة) La vie inquiète (١٨٧٤) ففي كلتا هاتين المجموعتين وما تبعهما حاول بورجيه أن يظهر ماوراء ذلك الطلاء الاجتماعى الذى يستر طبيعتنا الاولى من نزعات جياشة ورغبات لاتخمد . فأصاب فى محاولته نصيبا وافرا من التوفيق .. على أن الشعر وما فيه من تكلف وتقييد لم يكن يتفق وأديبا من نوع بورجيه .. يسعى لتمزيق الحجب التى كست بها المدنية الشخصية الانسانية . يحاول أن يتغلغل الى ماوراء الصدور ، يكشف النيات والاحساسات الغامضة الملتوية .. ثم يعمد الى تحليلها والوقوف على مبعث وجودها .. ان هذه الموهبة لهى أكثر صلة بطبيعة الناقد ومهمة القصصى لذا سار بول بورجيه فى هذين الاتجاهين وبلغ فيهما شأوا عظيما .

ففيما يتعلق بالناحية النقدية من فنه بداها بورجيه بكتابه دراسات عن كتاب القرن التاسع عشر .. وهو القرن الذى عاش فيه النصف الثانى بأكمله .. وكان من بين هؤلاء الكتاب بودلير وستندال وتين .. ولا تزال هذه الدراسات حجة ومرجعا فى تحليل من كتب عنهم . أما فيما يتعلق بفن بورجيه القصصى فقد بدأه بعد زيارته لانجلترا عام ١٨٨٤ بقصـة (الذى لا يصلح) L'irréparable وهى أولى قصصه القصيرة التى كتب منها العدد الوافر .

أما قصصه الطويلة فقد بدأها بقصة (لغز قاس) Cruelle énigme (١٨٨٥) وتلتها (جريمة حب) Un crime d'amour (١٨٨٦) ثم أندريه كورنليس) André Cornélis (١٨٨٧) ثم (أكاذيب) Mensonges (١٨٨٧) .

ولم يكن بورجيه الى ذلك الوقت قد بلغ بعد الشهرة التى أعدها له القدر حتى ظهرت قصته (التـابع) Le disciple (١٨٨٩) ثم تلتهـا (المرحلة) L'étape (١٩٠٢) ثم (طلاق) Un divorce (١٩٠٤) وعندئذ ذاع اسمه ذيوعا كبيرا وكثر تحدث الاندية الادبية والنقاد عنه .. ولقد كان الباعث على ذلك أمرين :

الاول : عمق التحليل الذى أثبت نبوغ بورجيه ككاتب نفسى الى جانب براعته كقصاص ..

والثانى : أن فى هذه القصص الثلاث أوضح بورجيه آراءه الاجتماعية

والسياسية بصراحة لا لبس فيها ولا مواربة بعـــد أن كانت تجول فى صدره ـ دون أن تجلى تماما ـ مدى عشرين عاما .

ومما لاشك فيه أن الآراء الاجتماعية والسياسية التى يؤمن بهـــا مفكر من المفكرين انما هى وحى نفسيته الخاصة وظروف البيئة ونوع الثقافة ودرجة الذكاء .. ويظهر أن كل هذه العوامل قد تضافرت لكى تخرج لنا من بول بورجيه مفكرا رجعى النزعة .. ولقد بدت هـــذه الرجعية منذ أوائل أعماله .. اذ كان فنه مقصورا على رسم الطبقة الارستقراطية والاعتزاز بها والدفاع عنها .. وقد يكون السببالذى منعه من أن يدعو لأفكاره جهارا فى أدبه هو فهمه لطبيعة شعبه الفرنسى الذى يقدس مبادىء الحرية والمساواة .

على أن هناك سببا آخر كان يحول بينه وبين تسخير فنه لبث تفكيره السياسى والاجتماعى .. ذلك أنه كان هناك مايشبه التقليد بين الكتاب الفرنسيين خلال القرن التاسع عشر ـ باستثناء أقلية تقدميـــة معدودة مثل فيكتور هيجو ـ وهو أن يكونوا فى فنهم بعيدين عن التأثر بالمشكلات الاجتماعية والسياسية .. فكان لكل منهم رأيه الخاص من دون أن يكون لذلك الرأى أثر ظاهر فى أدبه الذى بقى فنا خالصا .. بيد أنه فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حدثت فى فرنسا حوادث سياسية مخزية كفضيحة بنما ومأساة دريفوسزعزعت عند عدد من الكتاب الفرنســيين الثقة فى النظام الجمهــورى وجعلت مبادىء الثورة الفرنسية الكبرى التى هى أساس هذا النظام موضعا للمناقشة والتفنيد .. الا أن الغالبية العظمى من الكتاب بقيت مؤمنة بقيمة النظام الجمهورى وفائدته .. مرددة أن ماحدث ماهو الا طوارىء عارضة وان اصلاحها يسير . ولايمكن مطلقا أن نكون سببا فى قلبنظام قام على تضحيات عشرات الالوف من الفرنسيين .. ولقد كان الكتاب الساخطون على النظام الجمهورى فى اثر الفضائح السياسية فريقين متناقضين .. كل منهما يطلب نظاما اجتماعيا يختلف كل الاختلاف عن النظام الذى يطلبه الفريق الآخر ويرى فيه الصـــلاح والقضـــاء على الفوضى القائمة .. فالفريق الاول كان يرى فى النظام الاشتراكى خير ضمان من عبث العابثين وكان زعماء هذا الفريق أناتول فرانس وجان جوريس ورومان رولان ..

أما الفريق الآخر فكان يطلب رجعية تعود بفرنسا الى ماقبـــل

الثورة الكبرى أى الى حكم الملوك المطلقين ورجال الدين .. وزعماء هذا الفريق .. بول بورجيه وموريس باريس وشارل موارس ..ومنذ ذلك الوقت جعل كل من الفريقين فنه ميدانا للدعوة لعقيدته ..فخرج أدبهم من أن يكون فنا للفن الى معالجة مشكلات المجتمع ومحاولة اصلاحه بالطريقة التي يراها كل فريق منهما .

ولقد كان هذا الذى حدث نقطة تحول هامة فى طابع الآداب الفرنسية فيما بعد .. ولقد ساعدت نكبة الحرب العالمية الاولى وما سببته من أزمات اقتصادية لا نهاية لها وبؤس جاثم على صدور البشر على ازدياد أنصار الفريق الاول – فريق فرانس وجوريس ورولان – ازديادا عظيما نلمسه الآن فى أعمال أعاظم الكتاب الفرنسيين من شيب وشبان .. فى حين وقف الفريق الآخر وعلى رأسه بورجيه عند نقطة ابتدائه .. لم ينله أقل تطور ، بل ازداد ضغطا بابتعادالحوادث التى سببت هذه الرجعية وعلى ضوء الحقائق الملموسة .

فى كل من القصص الثلاث (التابع) و (المرحلة) و (طلاق) نرى بورجيه يتمسك بأمرين يدعو لهما ويعدد مايراه فيهما من فضائل .

الامر الاول .. نظام الحكم الملكى القديم .

والامر الآخر..التقاليد الدينية قبل أن يدخلها الاصلاح والتطور.

فبينما نراه فى قصة (التابع) يوغل فى امتداح الطبقات الارستقراطية ويعتبر التصويت العام خطرا قوميا .. نراه أيضا فى قصة (المرحلة) يحاول أن يثبت أن هناك حدودا يجب ألا تتعداها الطبقات الفقيرة .. وان (المرحلة) التى تفصل بين هذه الطبقات والطبقات الارستقراطية بعيدة الشقة تكاد لايمكن عبورها .

ولقد جعل بورجيه بطل قصة (المرحلة) – ويدعى فيكتور فيران – أجد أساتذة الجامعة المشهورين فى فهم الفلسفة الكاثوليكية وهو حين يصفه لنا يقول :

(انه ليس تقليديا فى الدين وحسب بل فى السياسة أيضا .. وهو لايتكلم عن الثورة الا ليذكر العقائد الجامدة الفاسدة فى ثورة ١٧٨٩) فاذا سمعنا الاستاذ فيران نفسه يتكلم رأيناه يعلن أن (جميع

القوانين التى نعيش فى ظلها منذ مائة عام ــ اى منذ الثورة الكبرى ــ هى قوانين الغرور والكبرياء) ..

ثم حين يقف فيران فى صف اعداء دريفوس ــ وهم كما نعرف قليلون بالقياس الى انصاره ــ لايتردد بول بورجيه فى أن ينسب ذلك الى (عبقريته الوضاءة الرزينة) ويدعم ذلك بتأييد آرائه فيقول :

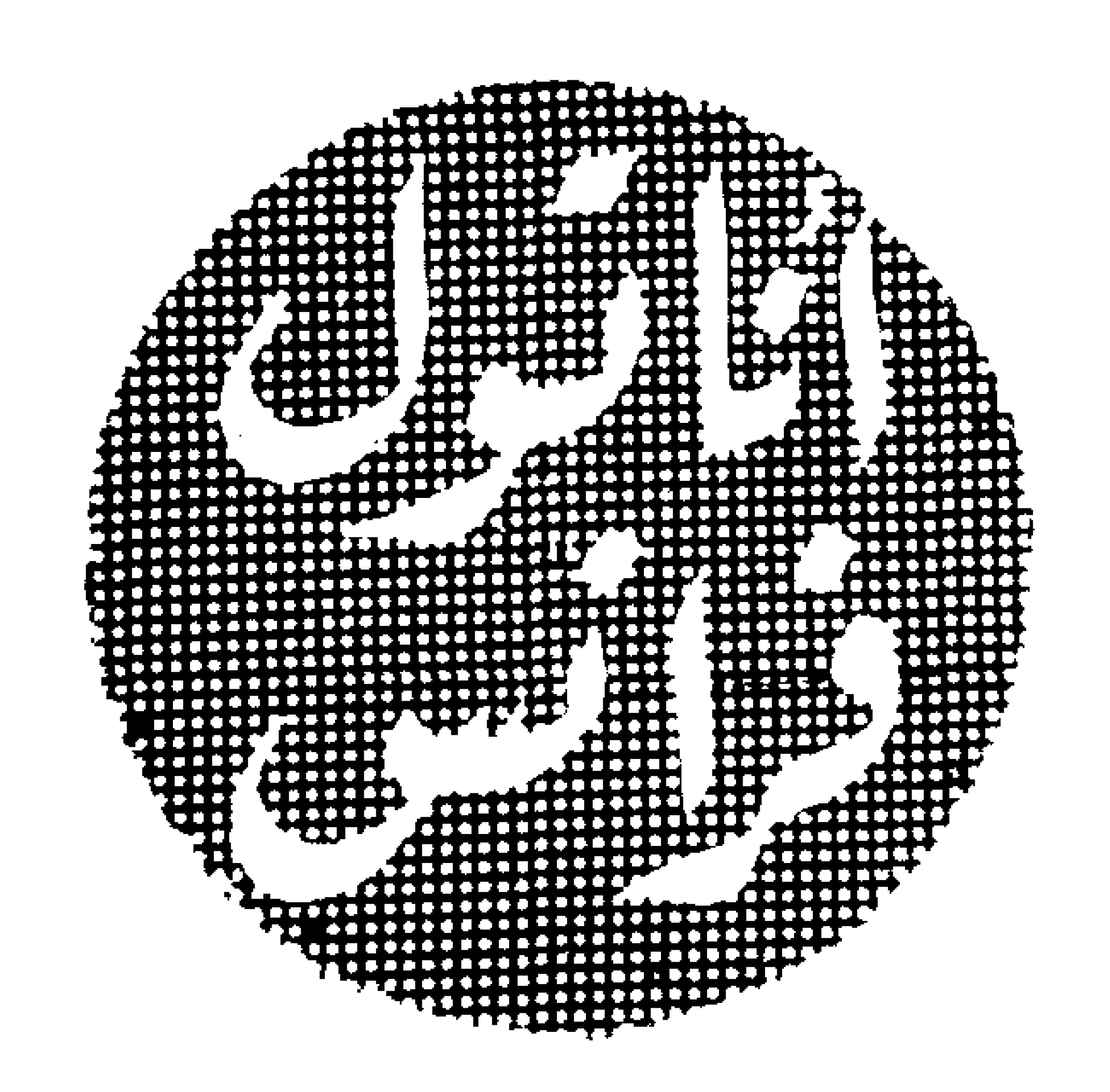
(ان فرنسا تغرق نفسها فى نظام برلمانى عظيم التطرف . نظام يقوده أفراد انتخبوا عن طريق التصويت العام وبعبارة اخرى تقوده اغلبية من المشعوذين أرسلتهم أغلبية من الجهلاء) .

وفى قصة (طلاق) نرى بورجيه يوقف فكرتها على الدعوة للكنيسة الكاثوليكية .. وفيها يعتبر أن الطلاق مهما كان سببه جالب للكوارث والنكبات .

من ذلك نرى أن فن بورجيه تقليدى محض .. ينكر كل تطور فى السياسة والدين أنتجته الافكار الديمقراطية الحديثة .. والحق أن طغيان هذه النزعة الرجعية الجامدة على فنه منذ ظهور قصة (التابع) قد أساء اليه اساءة ليست يسيرة .. اذ عزل اسمه من صفوف الطليعة بين رجال الفن القصصى المحدثين الواعين الذين ساروا فى ركب التطور وكانوا عونا محسوسا فى السير بالمجتمع الانسانى نحو النور والتقدم .

لقد كان بورجيه أديبا ومفكرا .. ولكننا بموته لم نفقد فيه ذلك المفكر الممتاز الذى كانت تعقد عليه وعلى نظرائه الآمال لانه يمثل روح العصر كما كانت الحال مع معاصره اناتول فرانس مثلا .. ذلك أن الافكار التى كانت تطبع أدب بول بورجيه لا تمت الى الفلسفة الاجتماعية الجديدة بصلة .. وهى لذلك لم تكن هزيلة فى فرنسا وحسب بل فى العالم المتمدين أجمع .. والانسانية التى تسير كل يوم الى الامام خطوة جديدة ليست فى حاجة الى الافكار التى تعود بها الى الوراء قرونا ... انما الذى فقدناه حقا بموت بورجيه .. هو بورجيه الاديب ولولا أن تفكيره كان يطغى عليه كناقد وكقصصى لاعتبر بدقة وصفه وعمق تحليله من اعظم أدباء فرنسا فى تاريخها الحديث .




آناتول
فرانس

بلغ أناتول فرانس في حياته أسمى مايمكن أن يبلغه كاتب عبقرى فوصل اسمه الى أقصى البلاد ، وترجمت مؤلفاته الى عشرات اللغات ٠٠ وطبعت كتبه مئات الطبعات ٠٠ ونال من الجوائز والمراتب أرفعها شـأنا وأعلاها ذكرا مما تتقطع دونه اعناق أعاظم الكتاب ٠٠ فمنذ خط طريقه الى عالم الآداب منح وسام اللجيون دونور فى ٣١ من ديسمبر عام ١٨٨٤ وفى عام ١٨٩٦ انتخب عضوا فى الاكاديميه فرانسيز ٠٠ وفى عام ١٩٢١ منح جائزة نوبل للآداب وحصل بذلك على مايقرب منخمسة عشر ألفا من الجنيهات فتبرع بها كلها لأهل روسـيا أيام المجاعة التى ألمت بهـا فى سنى الثورة العصيبة الاولى .

على أن أناتول فرانس لم يكد يفارق حياته الحافلة عام ١٩٢٤ حتى برز له النقاد يحاسبونه حسابا عسيرا ٠٠ ينهشون أعمـاله ويحللون ويناقشون افكاره .. فانتهى الكثير منهم الىأنأناتول فرانس قد نال فى حياته من المجد أكثر مما يستحق بكثير ٠٠ واتهموه بأنه كان على نقيض ماأراد أن ينشره حول اسمه ونجح فيه بفضل (ادعائه ودجله) على حـد تعبير البعض منهم ٠٠ فقد أراد أن يظهر بمظهر الرجل الذى جاء الى هذا العالم ليغرس الرحمة فى قلوب البشر المتحجرة ولكنه كان فى نظرهم أبعد الناس عن الرحمة والرثاء للضعفاء والمساكين ٠٠ قالوا : كيف يمكن أن يحمل بين جنبيه قلبا رحيما وهو الرجل الذى سخر حياته للسخرية من صرعى الحياه .. رجل جاء الى هذا العالم ليستمتع بأكبر لذة مستطاعة وليسخر من أكبر عدد ممكن من الناس ٠ كيف يفهم آلام الغـير ويحس بأوجاع المتألمين انسان لم يشعر بالألم الحقيقى مرة واحدة فى حيـاته الطويلة لانه كان يكره الالم ويحتقر المتألمين فيطير من وجوههم فرارا الى سماء اللذات ومتع الحياة ٠

والمعروف ان اناتول فرانس كان فى كتاباته وأقواله ديموقراطيا بل اشتراكيا متطرفا .. ولكم سخر منه فى ذلك أيضا فريق ناقديه ، ألم يهزأ بالثورات ورجالها فى قصته (الآلهة ظمأى) ؟ ألم يعتبر الديموقراطية وحكم الشعوب طعنة للفكر الانسانى والثقافة العليا ؟

ولقد أضاف النقاد الى ماسبق فاعتبروا أناتول فرانس «لصا بارعا»

سرق كل ماجاء به من الافكار من آداب وفلسفة الرومان والاغريق على الخصوص ·· ولقد بلغ الامر ببعضهم الى اعتباره (مفكرا من الدرجة الثانية) أما الكاتب العظيم أندريه جيد فقد قال عنه (كان يمكن أن يفيض حبى لأناتول فرانس أكثر مما هو الآن لولا أن عددا من قليلى التبصر والدراية أرادوا أن يجعلوا منه كاتبا ممتازا ·· ان قيمة الكاتب كما يقول ستندال هى فى قدرته على هز قارئه ·· وانا حين أقرأ أناتول فرانس لا أشعر مطلقا بأقل اهتزاز) ·

ولسنا نود أن نذكر شيئا عن التحقير والتشهير الذى وجهه الى أدبه جماعة (ماوراء الحقيقة) Surréalistes لانه يتعدى حد النقد المعتدل البرىء·

على أن أناتول فرانس لم يحرم من يدافعون عنه ويردون على كل نقد وجه الى (الأستاذ الأعظم) كما يسميه الفرنسيون حتى اعتبره ميشيل كورداى فى كتابه عنه (نصف اله) .

ان المرء ليشعر بالحيرة حين يقف وسط عواصف هذه الآراء المتصاربة على اننا سنحاول أن نتجرد من التأثر برأى كل من الفريقين ثم ننظر الى اناتول فرانس كما كان هو ينظر الى الناس .. لننظر اليه متعالين متكبرين لأن التعالى والكبرياء كما يقول ينفعان فى الحكم على الامور دون التأثر بتحزب عدو أو الخضوع لمحاباة صديق .. لنحكم عليه خلال أعماله المجردة ولنستعن الى جانب ذلك بخلاصة صرخات النقاد طوال السنين التى انقضت على وفاته من اصدقاء واعداء على السواء .

ولد اناتول فرانس فى باريس فى اليوم السادس عشر من ابريل عام ١٨٤٤ وكان والده ـ ويدعى فرانسوا نويل تيبو ـ بائع كتب ·· فنشأ بين تلال المؤلفات الكثيرة المتنوعة يقلب فيها بغريزة الطفل المتطلع لمعرفة كل شىء دون أن يدرى كنهها وقيمتها ، فنما شب قليلا وابتدأ يشعر بقيمة الجو المحيط به شرع ينهل من ثروة الافكار وتراث العقول بجشع غريب وابتدأت تتفتح أمامه أبواب المعرفة والخبرة النظرية يستمدها من ثنايا الأسفار ·

على أن أحوال حياته العائلية قد أعانته أيضا أكثر من غيره على استكمال الخبرة العملية بالحياة .. فلقد عرفنا الآن ان اناتول فرانس ابن بائع كتب فكان طبيعيا أن يقضى الصبى اناتول معظم يومه فى الطرقات

بين أمثاله من الصغار ·· لذلك كانت طفولته أقرب الى التشرد والاضطراب منها الى الهدوء والاستقرار الذى تخلقه الحياة المنزلية الوادعة ·· ولقد ساعدته حساسيته الممتازة على التأثر بهذه الحياة واجادة فهمها واكتساب كثير من التجارب من (مدرسة الشارع) كما يقول وقد ظهر كل ذلك واضحا فى قصته (كرانكابيل) Craincabille وعندما شب أناتول فرانس اشتغل مساعدا لابيه يخالط صنوف النـــاس ويرى مختلف الوجوه ، ما يحبها وما يكرهها ـ فعرف من ألوان الحيـــاة كثيرا مما لا يعرفه الكبيرون ·

وكان أناتول فرانس يعتز الى جانب هذا وذلك بباريسيته الصميمة ويظهر أنه كان يعلق بها شـــأنا خاصا فى توجيـــه تفكيره وتلوين أدبه وطبعهما بالطابع الخاص الذى كان يمتاز به ·· وهذا هو مادعاه لان يقول فى (كتاب صديقى)Le livre de mon ami هذه العبارة القصيرة التى تضم روح الاعتزاز والفخار (انى باريسى بكل نفسى وبكل جسمى) ·

فلكى ندرس أناتول فرانس وتفكيره وروحــه يجب أن نضع أمام أعيننا هذه الحقائق الثلاث :

باريسى صميم ــ ابن بائع كتب ــ طفولة مشرده ·

لم يكن أناتول فرانس طالبا مجدا وكان اهتمامه بقراءة الأدب وبناء آمال أدبية أكثر من اهتمامه بتحصيل دروسه المدرسية بل انه كان يعتبر أن حيـاة المدرســة ودروسها كانت حائلا بينه وبين العـلم الحقيقى اذ يقول :

(اننى لم أبتــدىء فى التعــــلم الا عنــدما انقطعت عن الدراســه المدرسية) ·

وكان أناتول فرانس طول حياته المدرســـية فى مساعــــا دائم السخرية من أساتذته ·· ومجموعة ذكريات حياته التى كتبها فيما بعد حافلة بالشخصيات التى تمثل أساتذته أيام الدراسة مصـــورة بروح ساخرة ماجنة ·

وكانت والدة أناتول فرانس كسائر الامهات تؤمن ايمانا صادقا بأن ولدها سيصادف النجاح فى جميع مراحل حياته ، أما والده فكان على الضد شديد الخوف على مصير ولده ·· وانك لتشعر بما كان يساوره من خطاب كتبه عام ١٨٦٨ وكان أناتول فرانس فى الرابعة والعشرين ·· قال فيه :

(ان ولدى لايتبع نصائحى فهو لايزال دون عمل ، انه يكتب بل يجب أن أقول انه يكتب بأسلوبه الردىء يشوه به الصفحات . ان ماكنت أخشاه منذ صغره قد شاء القدر أن يتحقق الآن . لقد عيل صبرى فى مقاومته فهل يكون من الفطنة والذكاء بحيث يستطيع أن يعول نفسه ؟ وا أسفاه !) .

والواقع أن أناتول فرانس لم يقبل أن ينتظم فى عمل من الاعمال يحقق به رجاء والديه .. بل ظل يقاوم مشيئتهما بعناد مثابرا على اعداد نفسه لمجد مستقبل حتى بلغه بعد جهد جهيد .

نعم بعد جهد جهيد . .فقد كان الدور التحضيرى لمجده الادبى طويلا مملا ، اذ قضى سنين طويلة يعمل فى مكتبة أبيه ، وكان ينشر بين حين وآخر مؤلفات راسين وموليير وغيرهما بعد أن يعلق عليها بشروح لا تخلو من فائدة .. وكان يشتغل فى ذلك الوقت أيضا بكتابة دراسات تاريخية وأدبية نقدية ، كانت أولاها رسالة عن الشاعر الفريد دوفينى (١٨٦٨) ثم ابتدأ يخوض غمار الشعر فنظم عددا من المقطوعات جمعت فى مجموعتين الاولى بعنوان (القصائد الذهبية) (١٨٧٣) والاخرى بعنوان (الاعراس) (١٨٧٦) وكانت جميع هذه الاعمال باجماع النقاد خالية من التفكير النير والذهن الصافى فلم ترفع ذكر مؤلفها .. وفى عام ١٨٧٩ نشر أناتول فرانس قصتين كانتا أولى محاولاته فى التأليف القصصى وهما (جوكاست) و (القط النحيل) فلم تسترعيا اليهما الانظار .

وفى عام ١٨٨١ نشر (جريمة سيلفستر بونار) Le crime de Sylvestre Bonnard فخرج اسمه مرة واحدة من الظلمة الى النور .

وتوالت بعد هذه القصة اعماله الادبية فكتب قصة (رغبات جان سرفيان) و (كتاب صديقى) الذى صدر عام ١٨٨٥ وهو الكتاب الاول من كتبه الاربعة التى ضمنها ذكريات حياته . ثم كتب (بلتازار) و (تاييس) Thaïs (١٨٩٠) و (مطبخ الملكة بيدوك) و (آراء جيروم كوانيار) و (الزنبقة الحمراء) Lys rouge و (حديقة ابيقور) Jardin d'Epicure وغيرها .

من عام ١٨٨٨ الى عام ١٨٩٢ كان أناتول فرانس يتولى تحرير قسم النقد الادبى بجريدة الطان بعنوان (الحياة الادبية) والى ذلك الوقت كان نشاطه مقصوراعلى فنه الادبى حتى كانت حادثة دريفوس الشهيرة فجذبته

الى غمار السياسة ووقف معارضا لدودا لتلميذه شارل موراس ٠٠ وكانت هذه الحادثة دافعة له على كتابة مجلداته الاربعة فى (التاريخ المعاصر) Histoire contemporaine وفى أثناء هذه المدة ظهرت قصتـاه (كليو) و (بيير نوزيير) وهو الكتاب الثانى من ذكرياته ٠

ومضى أناتول فرانس يوالى انتاجه القصصى وهو يسعى جهده فى أن يغير طابع أعماله الادبية من قصص تشرح أفكاره الفلسفية ونظراته العامة الى اخرى تطفى فيها روحه الساخرة ونفسه المراحة .

وفى عـام ١٩٠٨ نشر أناتول فرانس كتابه (حيـاة جان دارك) Vie de Jeanne d'Arc الذى حاول به أن يخرج عن طريقته فى معالجة التاريخ كقصاص الى معالجته كمؤرخ ولكن النقاد يكادون يجمعون على أن أناتول فرانس قد أخفق فى تحقيق ماتمنى ٠

وفى عام ١٩١٢ نشر أناتول فرانس قصته (الآلهة ظمأى) Les dieux ont soif ثم ظهرت قصة (ثورة الملائكة) La révolte des anges وبكتابيه (بيير الصغير) و (الحياة الزاهرة) أتم أناتول فرانس كتبه الاربعـة عن ذكريات حياته وقد ذكر فى ختـام كتابه الاخير ان هذه الذكريات صادقة (من حيث الوقائع الرئيسية والاخلاق والعادات) وان التغيير الذى حدث ينحصر فقط فى تغيير الاسماء واحوال معظم أشخاصها ٠

تفتحت عينا أناتول فرانس منذ طفولته على مناظر السين ومياهه الجارية (كما تجرى صور الحياة فى هذا العالم كل منها يمر ولا يبقى شىء) وكان غرامه النادر بالكتب والدرس الممتزج بروحه الشاعرة يجعله يهيم بأرصفة نهر السين (القديمة الحزينة ـ كما يقول ـ تلك الجهات المختارة من رجال الفكر والفن الجميل ٠٠ أجمل مكان فى العـالم ٠٠ حيث تجتمع الاشجار والكتب وتمر النساء أمام العيون) وكانت نفسه الفنانة تدفعه الى طول التأمل فى (اللوفر) و (كنيسـة نوتردام) وغيرهما من آثار قرون المجد السالفة ٠٠ تلك الآثار التى لم تكن نضرتها الموفورة وسكونها الوقور قد ذهبا بعد بازدحام وسائل النقل الحديثة والمدنية الصاخبة .. فلم يكن غريبا اذن أن يطبع كل ذلك نفس أناتول فرانس بما عرف عنه من حب الآثار والحنين الى الماضى السحيق فانكب منذ صغره على دراسـة آداب الاغريق وعلومهم ونقشت فى ذهنه المتفتح آراء فلاسفتهم سواء منهم أهل

الجد مثل هوميروس وصفوقليس وثيوقريطس أو أهل المجون مثل ابيقور . ولقد تأثر فرانس أيضا بالآداب اللاتينية وان كان تأثره بمظاهر الحياة أكثر من تأثره بأفكار الكتاب . كذلك كان لفلاسفة القرن الثامن عشر وعلى رأسهم فولتير أثر كبير في تفكيره .. ولا يجب أن ننسى أيضا ماكان بين أناتول فرانس ومفكرى القرن التاسع عشر مثل رونان وشوبنهور وداروين من التجاوب الروحي والفكرى .

من ذلك نرى ان اناتول فرانس قد جمع فى عقـله عصـير تفكير الفلاسفة القدماء والمحدثين وتأثر بهم جميعا وظهر ذلك واضحا فى كتبه حتى انه يؤثر عنه قوله .. (لست أعثر على شيء جديد الا فى كتـاب قديم) .

ان فن أناتول فرانس ماهو الا صورة من نفسه فالشخصيات التى رسمها فى كتبه تكاد تكون كلها شخصيات واقعية خالطها وعاشرهـا . كذلك الآراء التى سردها على لسان ابطاله هى فيض نفسه وخلاصة تفكيره ودراسته وما وصل اليه فهمه للحياة والناس .

كان أناتول فرانس سطحى النظرة الى الحياة ولعل هذا هو السبب فى خلو أفكاره من العمق الفلسفى فهو لم يحاول أن يتغلغل الى أعماق عوالم يجهلها ليكشف عن أسرارها ثم يصبها فى فنه .. بل كان ينظر الى الحياة نظرة منفرج كأنه قائد يجلس على ربوة عالية يشرف من فوقها على معركة الحيـاة وهو قابع مستريح .. ولقـد شرح أناتول فرانس فلسفته فى ذلك فقال :

(لقد كنت دائما ميالا فى كل وقت الى النظر الى الحياة كما ينظر الانسان الى منظر من المناظر الطبيعية .. فلم أكن يوما من الايام ملاحظا مدققا لان الملاحظة لابد لها من طريقة توجهها وأنا ليس لى طريقة من الطرق . ان الملاحظ المدقق يقود عينيه ويوجههما الوجهـة التى يريدها .. أما المتفرج فهو يستسلم لعينيه قانعا بما يراه . لقد ولدت متفرجا وسأحافظ طول حياتى ـ كما أعتقد ـ على السذاجة العظمى الذى تميز أطفال باريس . تلك السذاجة التى تجعلهم يحبون كل شيء والتى يحافظون عليها مهمـا تقدمت بهم السنون) .

والواقع الذى لاسبيل الى انكاره أن اناتول فرانس قد جمع فى نفسه

سجايا المتكبر المغرور .. ولقد ساعده على ذلك علمه الواسع وثقافته المترامية المستمدة من الثقافة الاغريقية .. فأصبح ينظر الى الجيل الذى نعيش فيه كما ينظر آباؤنا واجدادنا الينا .. انهم ينظرون الينا بعيون ملؤهـا الاشفاق والرثاء كأننا مهما نلنا من سعادة متصورة أو علم نزهو به وهو فى نظرهم قشور لايمكن ان نبلغ مابلغوا من سعادة ولايمكن ان تحوى عقولنا ماحوته عقولهم من معارف .. تلك كانت نفسية أناتول فرانس وكأنه كان يقصد نفسه بقوله : (متى توصـل الانسان الى فهم كل شىء لم يرد شيئا) . لذا كان اناتول فرانس يترفع عن الاهتمام بما خفى عليه من الامور .. كانت كبرياؤه تدفعه الى الايمان بأن كل مايجهله لا يستحق أن يعرفه .. ولذا لم يكلف نفسه عبء التغلغل الى صميم الاشياء لكى يصل الى فهم الحياة والناس كما يجب .. وكيف يكلف نفسه وهو الذى يقول :

« ان علم الحياة الحقيقى . . هو احتقار كريم للناس اجمعين » .

لقد فرض أناتول فرانس الشر فى كل شىء .. وكان يجد العزاء فى أحضان الملذات ينتهبها انتهابا .. وكان ايمانه بمـذهب ابيقور فى التمتع بالحياة بأكبر لذة مستطاعة انما وصل اليه بعد تفكير هادىء رزين ولقد بلغ حبه للذة لمجرد اللذة أن أنكر الغيرة (التى لم أشعر بها قط طول حياتى) كما قال .. كما أنكر الحب العظيم واعتبر علاقة الرجـل بالمرأة لاتخرج عن (مهمة جسدية) .

كان تفكير أناتول فرانس يدور حول أمرين .

الاول (الشك) Scepticisme والثانى (الاشتراكية) والامر الاول حدد نفسيته العامة ورايه فى الاديان أما الامـر الثـانى فيبين فـكرته السياسية والاجتماعية .

كان أناتول فرانس يهزأ بكل رأى ويسخر من كل فكرة فجميع الآراء والنظريات فى نظره سخافات تتناقض بين جيل وجيل كلما تغير الزمن وتغير مبدعوها .. وأى سخرية أشد من تلك التى جعلته يقول على لسان أحد أبطال قصة (رغبات جان سرفيان) هذا القول (ان رأى العالم أجمع لايستحق التضحية برغبة واحدة من رغباتنا) فأنت ترى أن أناتول فرانس كان ينظر الى العالم نظرة متشكك ثائر ساخر من كل مايراه هازىء بكل من حوله حتى دفعه ذلك الى القول : (كل قاعدة بحثت فى أصلها وجدت

تحتها شيئا ولم يطل الامر حتى علمت أنها لم تكن قاعدة) وفى (حديقة ابيقور) يقول (كلما فكرت فى الحياة الانسانية زاد اعتقادى أن السخرية والشفقة هما الوسيلتان للنظر اليها والحكم عليها ٠٠ اذ أن السخرية والشفقة ناصحان رفيقان ٠٠ فالسخرية تحبب الينا الحيـــاة والشفقة تجعلها مقدسة لدينا ، والسخرية التى أعنيها ليست السخرية القاسـية المريرة .. انها لاتسخر من الحب ولا من القلب النبيل .. انها السخرية الهادئة الكريمة ٠٠ فالابتسامة الساخرة تسكن سورة الغضب وهى التى تعلمنا التهكم بالاشرار والحمقى وبدونها نضعف ويتسنط علينا الحقد والضغينة) .

ولقد أراد أناتول فرانس أن يرسم نفسه فى كتابه : (آراء جيروم كوانيار) ففى مقدمة الكتاب نراه يحلل شخصية جيروم فيصفه بأنه (ذو فكر ثاقب وبصيرة واسعة) هما فى نظر أناتول فرانس ثمرة (نوع من الشك المستفيض) وجيروم هذا (فيلسوف ومسيحى) تأثر باثنين كان لهما الاثر الاكبر فى تفكيره .. الاول ابيقور الذى اكتسب منه انطلاق الرأى وحرية الفكر ، والآخر سان فرانسوا داسيز الذى أخذ منه بساطة النفس والبعد عن التكلف المرذول ٠٠ والقارىء لكتاب (آراء جيروم كوابيـــار) لايلبث أن يحس بذلك الجموح الذى يغمر جيروم وبتلك الروح المـاجنة الساخرة التى تجعله يعصف بالدين والاخلاق والتشريع والفكر الانسانى وكل مااصطلح على تمجيده وتقديسه .. وحتى العقل الذى طالما مجده لم يسلم من مهاجمته وسخريته اذ يقول فى نهاية هذا الكتاب (اذا أردنا أن نخدم الناس فيجب أن ننبذ كل منطق وتفكير ونلقى به كما نلقى بأثاث يضايقنا ٠٠ يجب أن نطير على أجنحة العاطفة والحمية أما التفكير والتمعن فلا ٠ ٠ان الانسان اذا فكر فانه لن يتقدم مطلقا تقدما محسوسا) ٠

ولقد كان طبيعيا أن يؤدى شك أناتول فرانس الى عدم الايمان بالله فقد كان ماديا عنيدا وكان نقده للكنيسة ورجالها لامثيل له اذ كان يعتقد أنها العدو اللدود لكل فكر حر ورأى مستنير ٠

ولقد لخص أناتول فرانس كل آرائه فى الدين فى كتابه (أحاديث عن وجود الله) Entretiens sur l'existence de Dieu الذى كتبه فى آخر حياته وانتهى منه قبل موته بشهرين وسلمه الى صديقه الكاتب ميشيل كورداى وعهد اليه بنشره فظهر بعد موته بعام ٠

كان هذا الكتاب آخر ماخطته يد اناتول فرانس فى عالم التاليف

وهو كتاب يفيض بالجرأة والجموح فعيه يقول (نعم انني بالتأكيد ملحد٠٠ لقد فكرت وكل من وصل الى قدر معين من الذكاء لايستطيع أن يكون غير ذلك .. انني لاأبقي شيئا من وراء اعلان الحادي وكل ماأريد قوله هو أنه حتى فيالعهود التي كانالدين مسيطرا فيها علىكل شيء كان هناك عدد من الكافرين أكثر من عددهم الآن ٠ وكل ماهنالك انهم كانوا عاجزين عن اظهار مايبطنون) والدين في رأى فرانس حدث لابد منه في المجتمع الحاضر (فالمؤمن المتدين هو الشخص الغارق) في الخطيئة الذى يأمل بتدينه الصفح والغفران أو المعذب البائس الذى فاته نعيم الدنيا فالتمس العزاء بتصور نعيم الآخرة) ٠٠ ثم انظر كيف يجد اناتول فرانس في الالحاد والكفر نعيما نفسيا لايقبل النزول عنه حين يقول :

(ان الحزن الفلسفي قد فسر نفسه أكثر من مرة تفسيرا رائعا مكتئبا فكما أن المؤمنين الذين وصلوا الى أقصى حد من الجمال المعنوى يتذوقون سعادة الاستسلام والخضوع .. كذلكالعالمالذى اقتنع بأن كلمايحيط بنا ماهو الا كذب وخداع تسكره تلك الحسرة الفلسفية وينسى نفسه بين لذات يأس هادىء ٠٠ ان الذين يتذوقون جمـــال ذلك الهم الدفين لايقبلون أن يستبدلوا به المسراتالجامحة والامانى الوهمية التى تلازم رجل الشارع) ٠

رأينا أن الشك الساخر بالحياة والمجتمع والناس اجمعين هو الظاهرة الطاغية على فن أناتول فرانس فاذا أردنا أن نفتش من خلال عباراته عن مبعث هذا الشك المستفيض والسخرية المريرة وجدناه يرجع الى خيبة امله فى النفس الانسانية والفكر الانسانى .. فنحن فى رأيه كمـا كنـا منذ عشرات القرون لانزال ننغمس فى حمأة الرذائل والنقائص الاخلاقية والفكرية ٠٠ فاذا أردنا أن نعرف بعد ذلك السبب الذى اليه يرجع أناتول فرانس كل هذه الرذائل والنقائص وجدناه يرجعها الى المال ٠

فالمال ٠٠ المال عند أناتول فرانس هو الاساس الذى قامت عليـه دعامة معظم الرذائل الانسانية ٠٠ لذلك نراه برغم استهتاره بكل شيء ونظرته المتشائمة اليائسة كانت تمر عليه بين حين وحين بسمات مضيئة من الأمل العريض فى مستقبل البشرية ٠٠ فقد كان يعتقد أن شيئا واحدا لو تحقق لأنارت العالم السعادة الخالدة والهناءة العميمة ٠٠ ذلك الشيء هو تحطم سلطة المال وتغيير النظام الاجتماعى الذى نعيش الآن فى ذيله ليحل محله نظام اشتراكى ينشر العدالة الاقتصادية بين الناس ويمحو منالوجود ظلم الغنى وعبودية الفقير ٠٠ ذلك ان (الاخاء بين الناس ـ كما يقول ـ

هو النتيجة المحتمة للاشتراكية) وهو يقول أيضا (ان السلام العالمى سوف يتحقق يوما من الايام ، لا لان الناس سوف يصبحون خيرا مما هم عليه الآن ـ فليس من السهل التعلق بهذا الامل ـ بل لان نظاما جديدا للأشياء أو علما جديدا وضرورات اقتصادية جديدة سوف تفرض عليهـم حالة الهدوء والطمأنينة كما كانت تفرض عليهم شروط الحياة فى الماضى أن يعيشوا فى حالة حرب دائمة) ٠

وكان أناتول فرانس يرى أن اتحاد الطبقات العاملة من الوسـائل الأكيدة لحفظ السلام العالمى وكان يهزأ من القول بأن الوطنية تحتم على الفرد خوض الحرب ، وكثيرا ماكان يكرر هذه العبارة (يظن البعض أن المرء يموت فى الحرب من أجل الوطن ٠٠ كلا ٠٠ انه يموت من أجـل أصحاب المصانع) ٠

على أن أناتول فرانس برغم دعوته الاشتراكية وما يبدو فيها من نزعـة انسـانية كان لايؤمن بسيادة الجمـاهير ومن ثم كان لايؤمن بالديمقراطية ٠٠ ولذا هاجمه النقاد واتهموه بالتذبذب والتجرد من أولى صفات الاديب العظيم والتعلق بمثال انسانى أعلى ٠٠ واعتبروا اشتراكيته ودفاعه عن الفقراء ومهاجمته لسلطان المال والاغنياء نوعا من الدجل الفكرى الذى اتخذه سلما لبلوغ قمة المجد الادبى ٠٠ على أن أناتول فرانس برغم عدم ايمانه بالديموقراطية ومهاجمته لها كان يفضل النظام الجمهورى على غيره من أنظمة الحكم الراهنة ٠٠ (لانه أخف من غيره ايذاء وأقل ضررا ٠٠ فهو ليس العدالة ولكنه أقرب الى البساطة والطبيعة من غيره من الانظمة) ٠

ويفسراميل فاجيه كرهأناتول فرانس لحركات الجماهير وحكمهم بان فرانس كان كأستاذه فولتير شديد الكره للأديان وما يتخذ صورتهـا كالثورات العنيفة ٠٠ ذلك أن الجماهير التى عض أحشاءها الجوع ومرغ كرامتها بالثرى جهل الحكام الظالمين ٠٠ هذه الجماهير حين تنفجر انفاسها المخنوقة فى ثورة تأكل فى طريقها الأخضر واليابس نراها تتخذ مـثـل الثورة الأعلى دينا تمجده كسائر الاديان فتتعصب له وترتكب فى سبيله نفس الجرائم والآثام التى يرتكبها رجال الدين الغـاشمون ضـد الخارجين عليهم ٠٠ وقد أظهر أناتول فرانس ذلك فى قصته (الآلهـة ظمأى) ٠

بيد انه برغم التناقض الذى نراه فى كثير من جوانب تفكير اناتول فرانس فان الذى لاريب فيـه أنه كانت تجرى فى دمائه روح العـدل

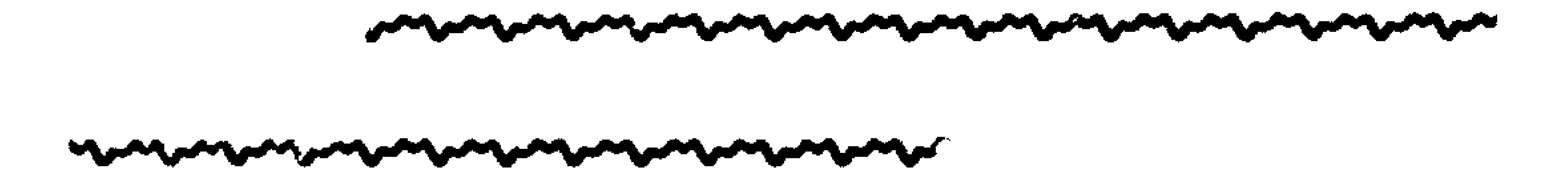
والمساواة وكان قلبه الكبير بفيض بالرحمة ويترفع عن الصغائر .. واذا كان همه طول حياته السخرية والتعالى فهى سخرية الاب الرحيم والمفكر الواسع النفس الخالص الوفاء٠٠ ولقد بقى حتى آخر نسمة من حياته يردد قوله (ان الاشتراكية هى ضمير العـالم وان النزاع بين الطبقات سوف لاينتهى الا باختفاء هذه الطبقات) ٠

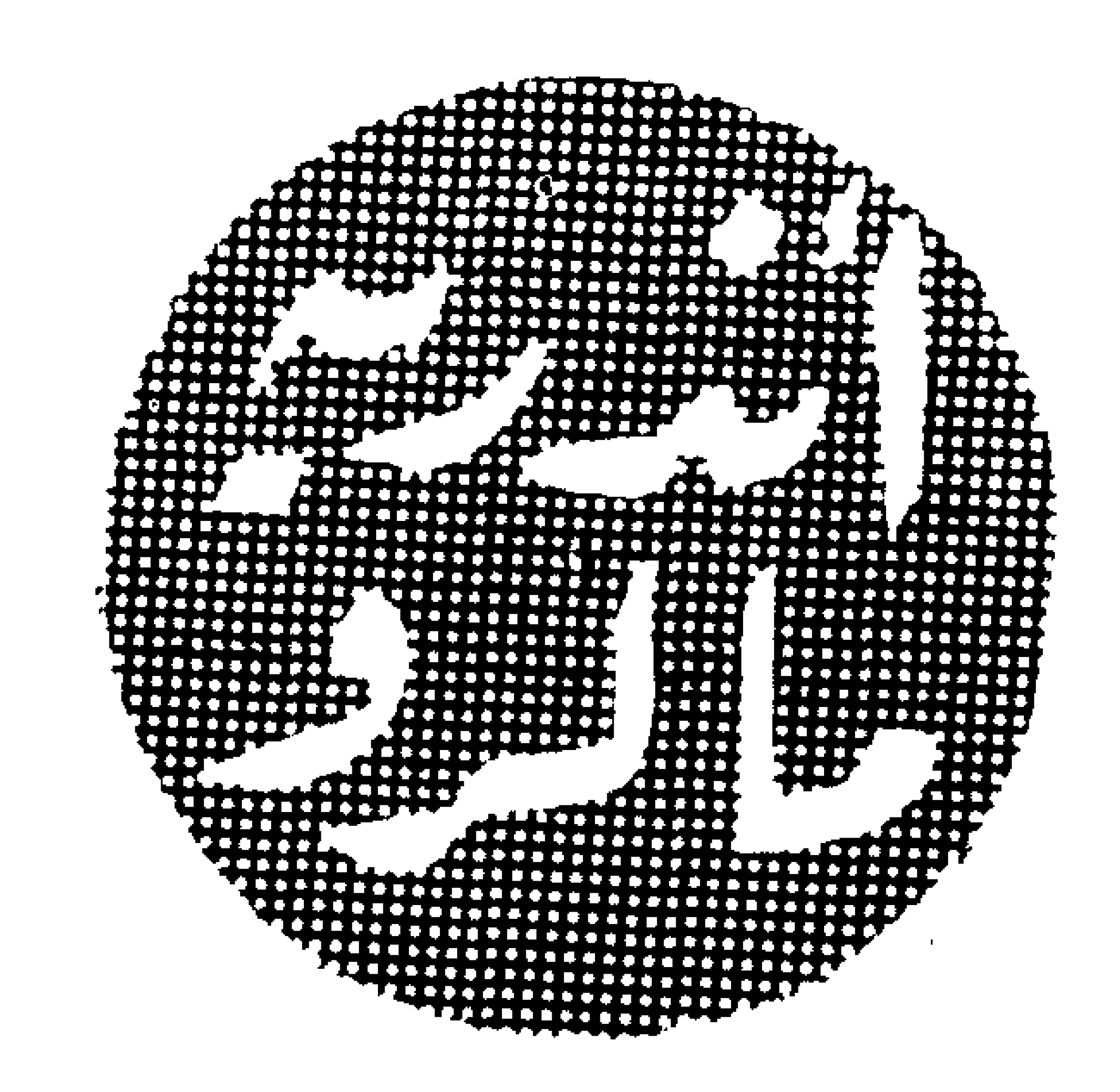
واذا كان النقاد قد اختلفوا فى تقدير قيمة أعمال أناتول فرانس وتفكيره فان سوادهم متفق على انه خير من كتب الفرنسية منـذ الثورة الفرنسية الى الآن ٠٠ بل منهم من يعتقد أن مايمتاز به أسلوبه من الرقة والسهولة يجعله لانظير له فى الآداب الفرنسية جميعا ٠

لقد كان أناتول فرانس هو المنقذ الاكبر للغة الفرنسية مما انتابها من التدهور بعد الثورة الكبرى ٠٠ وبرغم انه كان فى تفكيره ثائرا فنبذ الافكار جميعا ، فانه كان بالعكس من جهة اللغة محافظا فأعاد لها مجدها القديم مضيفا الى ذلك عبقريته الخاصة فى حسن الصياغة والدقة النادرة فى الاحساس بجمال الالفاظ والتعابير ٠

ولقد كانت سهولة أسلوبه وابتعاده عن التكلف هى ميزته الكبرى وكان يفتخر قائلا ٠٠ (ان كمية ألفاظى اللغوية محدودة فقيرة) وكان ايمانه بوجوب السهولة المطلقة فى الاساليب تدفعه للاعتقاد ـ بخلاف الكثيرين ـ الى أن الصحافة ساعد على تقدم أسلوب الكتابة لانها بارغامها الكاتب الصحفى على الاسراع فى الكتابة تحول بينه وبين التكلف والافتعـال فيخرج اسلوبه طبيعيا مستقيما سلسا .

لقد كان اسلوب أناتول فرانس ـ كما يقول الناقد بول سوداى ـ فريدا لايمكن تقليده ٠٠ ولقد صدق جول لومتر فى قوله (لقد كان أسلوب أناتول فرانس سبيكة من المعادن الثمينـة ففيـه نرى أساليب راسين وفولتير وفلوبير ورينان ٠٠ وأسلوب أناتول فرانس دائما) ٠





لعل من النادر أن نرى بين أدباء الغرب المعاصرين أديبا يمثل روح العصر الحاضر مثل الاديب الفرنسى أندريه مالرو · وهو من هذه الناحية ، ومن حيث تأثير فنه فى عقلية شباب هذا الجيل الذى نعيش فيه يقف الى جانب الكاتب الكبير أندريه جيد ، الا أن كلا منهما يمتاز من حيث المشكلة التى يطرقها ويسعى لحلهافأندريه جيد يكاديقتصر فنهعلى معالجةالمشكلة الجنسية التى يعتبرها مشكلةالمشاكل ، فى حين يطرق مالرو الشخصية الانسانية بأكملها ، بكامل غرائزها ، ساعيا لتحديد موقفها فى هذا العصر المضطرب الطافح بالانقلابات والتطورات ·

وأندريه مالرو منذ ابتدأ حياته الادبية كاتب اجتماعى لا يستطيع أن يتصور كيف يمكن للأديب أن يبتعد عن معالجة مشاكل المجتمعالذى يعيش فيه واتخاذ موقف محدد حياله · ولذا فهو عـدو لذلك النفر من الأدباء الذين آمنوا بما أسموه مذهب (الفن للفن) أو (البرج العاجى) يقبعون فيه غير عابئين بما يدور حولهم من مآسى الحياة حتى بلغ الامر ببعضهم الى اعتبار أن مجرد المساس بحقائق المجتمع المحزنة الداميـــة تشويه لجمال فنهم ولم يقتصر مالرو على استخدام القلم لخـدمة المجتمع الانسانى بل كان يهب كلما سنحت الفرصة ليخدم بقوة السلاح المبادىء السامية التى يؤمن بعدالتها · فلم تكد تنشب ثورة الصين التحريرية بعد الحرب العالمية الاولى حتى سافر اليها يعمل الى جانب جيوش الوطنيين فى سبيل المثل الأعلى الذى كانت تدافع عنه وهو التحرر من الاســـتعمار الاجنبى ·

وعندما قامت الحرب الاهلية الاسبانية عام ١٩٣٦ بادر بالسفر الى اسبانيا ليعمل فى جيوش الجمهورية الشابة ، طيارا مدافعا عن ســـماء مدريد الشهيدة فى أثناء حصارها · واخيرا لم تكد فرنسا تخر علىركبتها عام ١٩٤٠ حتى عاد مالرو الى حياة الكفاح العملى · فأبى أن يهجر وطنه فى محنته وانضم الى حركة المقاومة السرية ليكافح الغاصب · وبرغم هذه الحياة المضطربة الخطرة لم يهمل مالرو قلمه وهو سلاحه الاول للتعبير عن تفكيره فاشتغل فى كتابة قصة طويلة من ثلاثة أجزاء بعنوان (الصراع مع الملاك) La lutte avec l'ange نشر الجزء الاول منها ، وهو (أشجار

(التنبرج) Les noyers de l'Altenburg في سويسرا عام ١٩٤٣ والحرب في أوج سعيرها ٠

كانت أول أعمال مالرو اصدار كتاب صغير بعنوان (اغراء الغرب) La tentation de l'Occident وهو عبارة عن خطابات يقارن فيها الكاتب بين مدنيتين : الشرقية والغربية ونحس حين قراءتها بألمه وخيبة أمله في مدنية الغرب ٠ وسرعان ما استرعى هذا الكتاب الانظار الى مؤلفه الذى أحس النقاد بنواحى التجديد فى تفكيره وما يختزن فى صدره بما يبشر بظهور لون جديد من ألوان الادب العالمى ٠ وفى عام ١٩٢٨ ظهر كتاب مالرو الثانى (الغزاة) Les conquérants وهو أقرب الى التحقيق الصحفى Reportage منه الى القصة ٠ وفي عام ١٩٣١ ظهر كتابه الثالث (الطريق الملكى) La voie royale وفى عام ١٩٣٣ أخرج مالرو قصته الشهيرة (الوضع الانسانى) La condition humaine التى نال بها جائزة جونكور لذلك العام وهى أكبر الجوائز الادبية الفرنسية ٠

وتفكير مالرو الذى يسيطر على جميع أعماله يتحدد منذ صدور كتابه (الغزاة) ثم يجلو ويبلغ أقصى وضوحه فى كتابه (الوضع الانسانى) ٠ كانت هاتان القصتان لونا جديدا فى الادب الغربى اذ لم يسبق أن عالج الفن القصصى مشاكل المدنية الغربية بالطريقة التى عالجها بها مالرو فى هذين الكتابين وسار على نهجها فى كتبه التالية . وذلك من حيث التجديد فى الفكرة وحرارة الاسلوب وطهارة الاخلاص .

يرى مالرو أن الانسان منذ فجر التاريخ يميل بطبيعته الى الثورة على الامر الواقع وتحسين الحالة الراهنة واكتشاف مايحيط به من المجهول٠ ولقد كانت الأديان أقوى وسيلة لتهدئة هذا الجموح الطبيعى واطفاء هذا الغليان وظل تأثيرها قوى المفعول مدى قرون طويلة واحقاب عدة ٠ ولكن الآن والمدنية الغربية قد بلغت مرحلة لااحترام فيها للعقائد ٠ ولا مراعاة لسنن الاديان بل ولا اعتبار للأسس التى قامت عليها هذه المدنية التى أوشكت أن تنهار دعائمها بعد أن طفحت القلوب بالشك فى قيمتها ٠٠ الآن ماهو موقف (الانسان) و (النفس الانسانية) ؟ ماهو موقف الفرد الاوربى أو غير الاوربى اذا كان من أبناء المدنية الحديثة المتأثرين بتياراتها ، المتحررين من كل قيد تقليدى ٠ يرى مالرو أن الانسان الجديد يقف أمام أحد أمرين لاثالث لهما ، فاما الاستسلام للأمر الواقع والتردى وسط هذه الفوضى الغاشمة التى لاضابط لها ولا حياة فيها واما التعلق بمثل أعلى

لخدمة نفسه وخدمة المجتمع البشرى كما يتعلق الغريق المحتضر بقارب النجاة ٠

أما الامر الاول فهو طريق الضعفاء فوق انه لايتضمن جمال الاحساس بالقيام بعمل سام . واما الامر الآخر فهو الطريق السوى الطبيعى لدوى النفوس العانية والانسانية الواسعة وهو الطريق الذى اختاره مالرولأبطاله مصورا حياتهم وطريقة تفكيرهم وضروب تضحيتهم وسمو ايمـانهـم فنرى (جارين) فى قصة (الفزاة) و (كيو) فى قصة (الوضع الانسانى) شخصيتين من تلك الشخصيات التى لاتستطيع الخضوع لحياة لاعرض لها الا قضاء أيام متشابهة مملة ٠ فهما يعانيان ذلك المرض الذى لا يختلف كثيرا عن المرض الذى يسمونه «مرض القرن» ، والذى ـ كما يرى مالرو ـ هو بالنسبة لفئة من الناس مرض جميع القرون ٠ ان هذه الدنيا لاتكفيهم ـ انها لاقيمة لها اذا لم تمنحهم الفرصة لانفجار كل نواحى الكفاح والنشاط فيهم ٠ ان حياتهم لامبرر لها ولا قيمـة اذا لم يحققوا للانسانية أفكارا سامية . ولما كانت كل مصائب المجتمع الحاضر مبعثها الظلم الاجتماعى وعلاجها ايجاد مجتمع بشرى تسوده العدالة الاجتماعية والاخاء الانسانى لهذا تعمد مالرو اختيار أبطاله من رجال المثل العليـا فى السياسـة والاجتماع ٠ فاصلاح المجتمع فى نظره وتسييره فى الطريق الذى تفرضه روح العصر هو الاساس الذى بغيره لايرجى اصلاح فى العلم أو الفن أو الادب أو الاخلاق أو غيرها ٠

كان (جارين) ثائرا على كل شىء ، كان ثائرا على المجتمع ٠ كان ثائرا على الغرب وماديته فهجره الى الصين حيث الملايين الحاشدة ينشر بينها تعاليمه ويبين لها حقها فى الحياة . كان ثائرا على الدين لان الاديان ــ فى نظره ــ كانت دائما على مر القرون هى الميناء الذى تهـدأ عنده ثورة النفوس البشرية ويخمد جموحها ٠ كانت العزاء والملاذ الاخير لكل منكوب (اذ كيف يمكن لمصاب بالبرص ــ كما يقول ــ ان يستسلم لمصيره ولا يسمم الآبار التى يشرب منهـا اذا لم يفض قلبـه بالامل فى حياة ثانية حيث تعوضه العدالة عن مصيبته وينال النعيم الأزلى ؟) ٠

ان (جارين) يريد أن يعيش واقعيا بكل مافى هذه الكلمة من معان ٠ انه يريد أن يحقق الجنة الارضية لانه مثالى يؤمن بالمثل العليـا ويوقن بامكان تحقيقها بالجهاد والتضحية ٠ انه يستهين بالمخاطر ويواجه الموت الى جانب الاحرار الصينيين فى ثورة كانتون راضيا مطمئنـا ٠ ومثـل شخصية (جارين) نرى شخصية (كيو) وشخصية الطالب (تشن) فى

قصة (الوضع الانساني) ، هذين الشابين الصينيين اللذين آمنا ايمان المؤمن بدينه بعدالة قضية الصين فى جهادها التحريرى • هذه الشخصيات الثلاث نراها جميعا تلقى بنفسها فى ذلك المحيط الثورى بقوة عنيفة ودافع خفى مستعذبين كل تضحية لان المثل الأعلى عندهم دين كسائر الاديان • والدين فى حاجة الى شهداء • ومن ذلك نرى أن أندريه مالرو لايعتقد أن هناك فرقا بين هؤلاء المثاليين وأولئك المتدينين الأوائل الذين كانوا يحطمون الاوثان واقصى آمالهم فى الحياة أن يتعذبوا من أجل عقيدتهم • فتصوير نفسية هذا النوع الشائع من الشبان المثاليين المتحمسين الذين لم يحسن المجتمع توجيه غرائز الطموح فيهم هو أهم مايطبع كتب مالرو بطابع القوة والتجديد •

ولنا أن نتساءل : لم اختار مالرو حوادث قصتيه (الغزاة) و (الوضع الانسانى) من الصين النائية ؟ أليس فى بلاد الغرب مجال لظهور هذه الشخصيات ؟ ألم يجد مالرو فى غير الصين مجالا لظهور الابطال وأعمال البطولة ؟ ان مالرو العالمى التفكير يتبع النهضات القومية أينما هبت • فكما اشترك بنفسه فى كفاح الصينيين القومى مما أوحى اليه كتابة قصتيه المشار اليهما ، كذلك حارب فى صفوف الجمهوريين الاسبان كما عرفنا ، وكتب عن الجمهورية الشابة قبل انهيارها المبكر كتابه المشهور (الامل) L'espoir (١٩٣٧) ولقد وجد مالرو فى هذه البلاد الحية بحركاتها الشعبية مجالا خصبا لذلك النوع من الابطال الذين اختارهم لقصصه • فهو يرى أن العالم الغربى أصبحت تسوده للأسف روح الوطنية المتعصبة • فالحدود مغلقة ، والمادية تطغى على كل شىء ، والفردية يلمسها المرء أينما حل • فأوربا الآن فى نظر مالرو لم يعد فيها الا نوعان من الكفاح • الاول كفاح العالم الذى يفنى السنين فى اكتشاف علمى ، وهذا الامر ليس فى متناول غير العلماء المتخصصين والآخر كفاح رجل الاعمال لتكديس الاموال مما صبغ الحياة كلها بالمادية التى لاتعرف الرحمة • أما هناك ، هناك فى ذلك الشرق البعيد حيث ألف بين الناس البؤس المشترك والشقاء العميم • حيث وحد بين قلوب الملايين الغفيرة الايمان القوى والقلق العام والحساسية المرهفة ، هناك الحقل اليانع لاصحاب المبادىء السامية والمثل العليا الجريئة التى سرعان ما تتشبث بها الجماهير وتتفانى فى خدمتها بمجرد احساسها بأنها طريق الخلاص واقفة منها موقف المؤمن بدين جديد جاء ليغير حياته ويبعثه بعثا جديدا .

ولقد أمدت الحرب الاخيرة ومحنة فرنسا فيها اندريه مالرو بمادة غزيرة لدراسة الشخصية الانسانية فى ظروف جديدة وأماكن غير الاماكن التى وقعت فيها حوادث قصصه السابقة فكتب فى أثناء الحرب كتابه (أشجار التنبرج) وهو كما ذكرنا الجزء الاول من قصة طويلة فى ثلاثة أجزاء بعنوان (الصراع مع الملاك) .

و (أشجار التنبرج) عبارة عن ثلاثة أقسام القسم الاول تقع حوادثه فى يونيه عام ١٩٤٠ فى أحد السجون فى بلدة شارتر بفرنسا وفى القسم الثانى يصف الكاتب حياة والده حتى الحرب العالمية الاولى فنعرف منه أن والده الزاسى المولد بقى فى الالزاس حتى عام ١٨٧٠ ثم عين مدرسا فى جامعة استانبول واختير بعد ذلك مستشارا للجنرال أنور باشا ثم أرسل فى مهمة الى أفغانستان ، وبعد سنوات فى تلك البلاد الشرقية يعود الى وطنه الالزاس حيث يموت والده (جد الكاتب) بعد وصوله بفترة قصيرة . وفى الالزاس يشترك فى أحاديث التنبرج وهى أحاديث تدور عن موضوعات معينة فى كنيسة قديمة حيث يجتمع تحت زعامة عمه (والتر) نخبة من المثقفين والعلماء والاساتذة من مختلف البلدان. وفى عام ١٩١٥ تقوده الحرب الى جبهة الفستولا حيث يشترك فى هجوم بمساعدة الغازات السامة . وهناك يترك المؤلف والده مغشيا عليه فى ساحة القتال منهوك القوى أثر المناظر الوحشية التى شاهدها ومن تأثير الغاز . يتركه ليعود الى نفسه وعندئذ يبدأ القسم الثالث من القصة فنرى انفسنا فى عام ١٩٣٩ نصحب المؤلف فى سيارته المدرعة حيث يواجه مع رفاقه الموت الحاصد الذى يخرجون منه بأعجوبة فينظرون الى العالم تحت ضوء فجر جديد لامع وبعيون جديدة ، عيون نسيت الماضى ولم تعد تعرف غير الحاضر . وهنا تنتهى قصة (أشجار التنبرج) أول جزء من قصة (الصراع مع الملاك).

ومنذ بداية هذه القصة أيضا ، فى ذلك السجن الموحش المعزول عن العالم الخارجى نرى أندريه مالرو يعود الى موضوعه الرئيسى وشاغله الاول فى كل كتبه وهو (الانسان) حيث نسمعه يقول (منذ عشر سنوات لايشغلنى ككاتب غير موضوع واحد هو الانسان . ذلك هو الموضوع الاساسى فى فنى) وهذا الشاغل نلمسه يتملك والده أيضا حين يقص علينا مالرو حياته ويروى لنا (مقابلاته) مع الانسان والتى ماهى الا مقابلاته الشخصية مع الموت والقسوة الانسانية والقدر غير المفهوم .

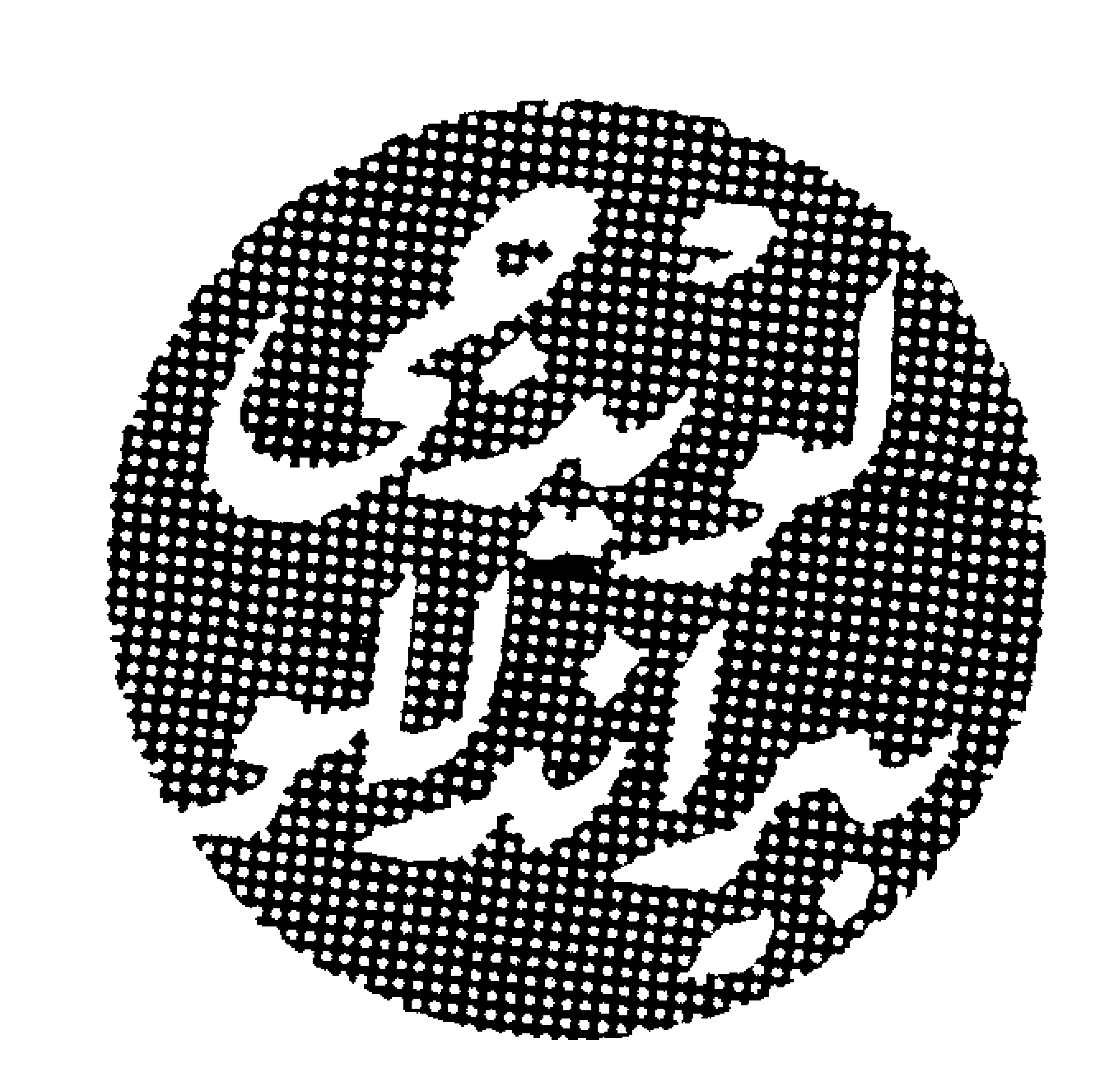
يقول مالرو على لسان والده (ان اللغز الأكبر ليس فى أنه ألقى بنا دون حساب بين المواد المتفجرة الغزيرة وبين الكواكب بل اننا ونحن في هذا السجن كنا نستمد من انفسنا صورا قوية لنكذب واقع حياتنا وهو أننا كائنات لاوجود لها) وهذا اللغز هو ماتريد (أحاديث التنبرج) أن تكشفه فكل المناقشات تدور حول هذه المسألة : هل يمكن ايجاد تحديد معين لمعنى كلمة انسان ؟ (ان الانسان بمعناه الحقيقى ما هو الا اسطورة ٠ هو حلم في ذهن المفكر) فما الذى نعرفه عن الانسان ؟ اننا لا نكاد نعرف شيئا (فحتى الثقافة لا تعلمنا شيئا عنه ٠ انها تعلمنا بكل بساطة ماهية الرجل المثقف بقدر ماهو عليه من ثقافة) اننا نعرف فقط (اننا لم نخير حين ولادتنا واننا سوف لا نخير عند موتنا واننا لم نختر والدينا واننا لا نستطيع شيئا حيال الزمن ، وان بين كل منا وبين العالم فاصلا معينا وعند ما أقول ان كل انسان يحس بقوة بوجود القدر فاننى أقصد أنه يحس ـ بحرارة ومن وقت لآخر على الاقل ـ باستقلال الكون عنه واهمال المجتمع لشأنه)

هذا الاحساس المرير من جانب الفرد بعزلته فى هذا العالم مما دفعه الى التعلق بالقدر والاستعانة بالخيالات والأوهام لتبرير حياته والرضا بما هو فيه من هوان هو فى نظر مالرو نتيجة تفكك الروابط الاجتماعية فى حياتنا الحاضرة وطغيان المادية على كل اعتبار آخر ، حتى هانت القيم البشرية وأصبح الاستهتار بكرامة الانسان وحياته وتضحيتهما هشيما سهلا فى سبيل المآرب الذاتية أمرا ما أهونه في هذا العصر ، هذا العصر الذى سماه مالرو بحق (عصر الازدراء) وأطلق التسمية عنوانا لاحد كتبه التى يعالج فيها مشكلة الانسان فى هذا العصر وهو كتاب (عصر الازدراء) Temps de mépris الذى صدر عام ١٩٣٥ وما الازدراء فى رأى مالرو الا للمخلوق البشرى الذى هان شأنه ، كما لم يهن فى أى عصر من العصور ٠

فالقدر الذى نصادفه فى قصص مالرو هو ذلك الملاذ الغامض الذى يلجأ اليه الانسان حين يحس بوحشته فى هذا العالم وتتهاطل المظالم والنكبات عليه دون أن يعرف لها مبررا أو تفسيرا فلكى ننتزع الانسان من استعباد القدرية ونحرر شخصيته ونرد له اعتباره يجب ـ كما يرى مالرو ـ أن نخلق له مجتمعا واقعيا تسوده قوانين العلم والمنطق ، مجتمعا

يحس فيه بوجوده ويدرك بين احضانه انه يعمل للمجموع ويعمل المجموع له . وهذا المجتمع لايتحقق الا بنظام تسوده العدالة والاخاء البشرى وتبرز فى ظلاله قوى الفرد ونواحى نشاطه لتتسلط بقوة العقل على قوى الطبيعة الغاشمة وتخضعها لخدمة الانسان بدلا من أن تخضعه هى لطيشها وعتوها ٠

وأسلوب مالرو أسلوب حزين ، عميق كتفكيره ، جامح كفنه ، ذلك الفن الذى يضعه فى مقدمة كتاب العصر التقدميين والذى تنبض أرجاؤه بتلك العالمية الواسعة وذلك الهم الذى يحمله فوق ظهره فى سبيل الانسانية وخيرها ٠



فى عام ١٩٣٤ منح الكاتب الايطـالى لويدجى بيراندللو جائزة نوبل للآداب .. فجاء ذلك القرار برهانا جديدا قويا على خطر الدور التجديدى الذى اداه بيراندللو فى تطور المسرح الايطالى المعاصر ..

فقد كان المسرح الايطالى منذ عام ١٨٧٠ حتى الحرب العالمية الاولى يعانى تدهورا شديدا حتى اعتبره كثير من النقاد خارجا عن دائرة الأدب الصحيح فى اثناء هذه الفترة الطويلة .. والواقع انه من العسير ان يشعر المرء بوجود فن مسرحى فى ايطاليا خلال نصف القرن الذى سبق الحرب العالمية الاولى الا باعمال الكاتب جبرييل دانونزيو وبعض اعمال عدد من الكتاب مثل جياكوزا Giacosa وبراجا Praga وبراكو Bracco وسمبنللى Sem Benelli

لم يكن التأليف المسرحى ضعيفا وحسب .. بل ان محـــاولات الكتاب الخائرة كانت تعيش كلا على الآداب الأجنبية .. وتمعن فى تقليد الكتاب الفرنسيين .. وأخصهم دوماس الصغير وأوجييه - ثم الـكتاب الروس والكاتب النرويجى ابسن فيما بعد .

ولقد كان المسرح الايطالى فى هـذه الفترة على درجة شـديدة من التبعية بحيث كان يتغير بتغير العوامل المؤثرة فيه.. فعندما قوى المسرح الطبيعى فى فرنسا ، لقى ذلك التغيير صداه السريع فى المسرح الايطالى فسادت روح الواقعية أعمال المؤلفين .. وكانت هـذه الروح من القوة بحيث تشبه الثورة على فن دوماس وأوجييه اللذين كانا يطبعان المسرح الايطالى بطابعهما حتى ذلك الوقت .

على ان التحرر من سـيادة فن دوماس وأوجييه لم يكن الا بنقل السيادة من يد الى أخرى ، وكانت هذه اليـد هى فن ابسن الذى ظل يغذى المسرح الواقعى الايطالى بمشـاكله التى يعالجها وبموقف ابطاله حتى الحرب العالمية الاولى .

كان للمسرح الواقعى بعض القوة ، الا ان تكرار معالجة المشـاكل التى عالجها ابسن فى قصصه خلق نوعا من الملل الشديد فقامت محاولات

جـديدة لبنـاء مسرح شـعرى poétique كان من زعمائه قبل الحرب الاولى سـمبنيللى .. وبعـد الحرب اركـول مورسـلى Morselli (١٨٨٢ - ١٩٢١) على أن هذا المسرح أيضا لم يؤد الى الغرض المنشود لأنه بالغ فى رومانتيكيته حتى كانت قصصه أشبه بالاساطير القـديمة ، وكان اظهر عوامل الضعف فيه انطفاء الاسلوب وخطأ التحليل .. لذا ظل الرجاء معقودا على طبقة أخرى من الكتاب حتى لاحت شمس النهضـة الجديدة على يد (المسرح الساخر) grotesque الذى كانت فكرته نواة ادب بيراندللو .. فاليه يرجع الفضل الاول فى تحرير القصة المسرحيـة الايطـالية ممـا يسمى الفكرة التصويرية Prejugé photographique التى خلقتها النظرة الواقعية والرجوع بالقصة الى معالجة الموضـوعات وتحليل العواطف والنزعات الانسانية بطريقة اكثر حرية وانطلاقا ، طريقة تقوم على أساس من الدعابة والسخرية ..

وجاء بعـد ذلك بيراندللو فاسـتطاع بعبقريته أن يبنى على تراث (المسرح الساخر) فلسفة خاصة هى وليدة تجاربه فى الحياة ، وآلامه النفسية وقراءاته الواسعة وان يركز هذه الفلسفة فى مذهب فنى عرف باسـم مـذهب الدعـابة Humariame أو باسم (مذهب بيراندللو) Pirandellisme الذى رفع به مسرح بلاده بعـد انحطاط نيف على نصف قرن كامل .

لقد مات بيراندللو فى أواخر عام ١٩٣٦ فى السبعين من عمره ، وابتدأ الكتابة وهو فى العشرين وكان انتاجه من الفزارة بحيث انه كتب حـوالى اربعمائة أقصوصة وعشر قصص .. وثلاثين رواية مسرحية .. ومعذلك كان اسمه حتى عشرة أعوام قبل فوزه بجائزة نوبل عام ١٩٣٤ يكاد يكون مجهولا فى عالم الآداب .. بيد ان بيراندللو قد استطاع فى الاعوام القليلة التى سبقت موته ـ بفنه المسرحى على الخصوص ـ ان يشق طريقه الى المجد .. ويكون له أتباعا فى أوربا بأسرها .. وأن ينال أخيرا اعظم الجوائز الادبية فى العالم أجمع .

ولد بيراندللو فى بلدة اجريجنتى بجـزيرة صقلية فى اليوم الثـامن والعشرين من شهر يونيو سنة ١٨٦٧ وعندما شب درس الأدب فى روما .. ثم سافر الى ألمانيا حيث حصل على شهادة الدكتوراه فى الآداب من جامعة بون .. ولما عاد الى بلاده عين أستاذا فى (المدرسة العليا للبنات) بروما .. وبقى فيها اربعة وعشرين عاما ، من عام ١٨٩٧ الى عام١٩٢١ .

ابتــدأ بيراندللو حياته الأدبية قصصــيا يكتب القصص الطــويلة والقصيرة ولكنه تحول فيما بعد الى الكتابة المسرحية .. فلقى عن طريقها سبيله الى الشهرة العالمية .. وقد كتب بيراندللو من القصص الطويلة قصة (المرحوم ماتياس باسكال) و (زوجها) وغيرهما .

أما قصصه القصيرة فكانت تظهر تدريجيــا مجموعة تحت عنوان رئيسى ثابت هو (حكايات لعام) واشهر هذه المجموعات (البريئــات) و (صقلية القديمة) وغير ذلك .

اما الروايات المسرحية فقد ابتدأ بيراندللو الكتابة فيها عام ١٩١٢ فكتب (واجب الطبيب) و (ليمون صقلية) و (عقل الآخرين) و (طاقية المجنون) على أن هذه الروايات كانت فى الواقع بمثابة الخطوات الاولى لفنه الذى لم يزدهر الا ابتداء من عام ١٩١٧حين كتب روايته (لكل حقيقته) فلقد توالت بعد هذه القصة قصصـــه المسرحية الرائعة التى اشــهرها (لذة الشرف) و (ست شخصيات تبحث عن مؤلف) و (كسو العرايا) و (هنرى الرابع) و (صديقة النســاء) وغيرها .

كان أظهر مايميز فن بيراندللو منذ قصصه القصيرة والطويلة ميله الى الدعابة .. يسعى اليها بغريزته كلما استطاع الى ذلك سبيلا .. علىأن فكرة بيراندللو عن الدعابة قد تطــورت وتحــددت بتحــوله الى المسرح واهتمامه على الاخص بكتابة القصص المسرحية ونبوغه فيها .. فقد كان بيراندللو فى البداية يلجأ الى الدعابة اجابة لنداء طبيعته الساخرة لكنه اقتصر فيما بعد ــ وخصوصا فى مسرحه ــ على اختيار الموضوعات التى تثير حقا سخرية المرء ودعابته ، ثم يجعل بعد ذلك من هذه الموضوعات مجالا واسعا لاطفاء ظمئه الطبيعى فى حب الدعابة .. وقد اتفق النقاد على أن عبقــرية بيراندللو هى فى مهارته الفائقــة فى حسن اختيار هــذه الموضوعات وتوخى الصدق فيها .

ويجب أن نلاحظ أن مسرحية بيراندللو لا تصلها بالمسرحية الهزلية صلة ، ذلك ان الناحية النقدية هى الفرض الأسمى فى مسرحيته ، فهى لم توضع لتبعث الضحك والمرح الى نفوس المشاهدين كما هو الحــال فى المسرحية الهزلية ، بل لتكشف لهم بطريقة تحليليــة لاذعة عن حقيقة الطبيعة البشرية ونواحىالصراع بينها وبين تقاليد المجتمع وموجباته... وقد كتب بيراندللو عام ١٩٢٠ يشرح ذلك بقوله :

(اننى اعتقد ان الحياة مهزلة محزنة .. لاننا نرى فى داخلنا دافعا قويا لا ندرى سببه ، يدفعنا الى أن نخدع أنفسنا على الدوام ... فنخلق لنا شخصيات وأفكارا تختلف باختلاف كل فرد ، ثم لا نلبث أن يبدو لنا أن ما فعلنا ليس الا وهما وخديعة .. ان فنى ممتلىء بالشفقة الحارة على أولئك الذين يخدعون انفسهم .. على اننى لا استطيع ان امنع نفسى من أن الحق بهذه الشفقة سخرية قاسية من الأقدار التى تفرض على الانسان فرضا هذا الغش وهذه الخديعة) .

وفن بيراندللو يعالج مشكلة من أكبر مشاكل الطبيعة الانسانية تلك هى مشكلة (الشخصية) فكم ينتاب شخصياتنا كل يوم من التغير والتقلب .. وكم يعانى الانسان فى علاقاته بسائر الناس الذين يختلف بعضهم عن بعض فى العادات والطباع .. فيرى المرء نفسه مرغما ان يلبس مع كل فرد ولكل حادث ولكل زمن شخصية جديدة حتى يستطيع الحياة فى هذا العالم .. فبيراندللو حين معالجته لمشكلة الشخصية تراه يقارن بين طبيعة الانسان وما تمليه عليه مقتضيات البيئة ومظاهر الحياة وبين ما يتبع ذلك من صراع وما يتخلل ذلك الصراع من رياء الحياة الانسانية وصغائرها .

يرى بيراندللو ان لكل انسان شخصيتين كامنتين فيه ، هما ابدا فى تناقض مستمر وحرب دائمة .

(الاولى) حيوانيته .. أى شخصيته الطبيعية بغرائزها وشهواتها .

(الثانية) انسانيته .. أى شخصيته الاجتماعية التى تحتم عليه ان يخضع للتقاليد والاوضاع والمبادىء الجامدة وكل ما اصطلح المجتمع على تمجيده وتقديسه .

ويرى بيراندللو أيضا ان الفرد يعتبر فى حالته الطبيعية حين يتبع غرائزه وشهواته و (حيوانيته) فان خالف ذلك وحاول ان يكون (انسانا) يتقيد بأنظمة مخصوصة .. وتخضع تصرفاته لقواعد مرعية، فهو فى نظره قد خرج على طبيعته واوقف سير (حياته الحقيقية) ليدخل (حياته الوهمية) التى يتصور انها الحياة الحقيقية .

وهنا يجب أن نتساءل .. ما الذى يرغم الانسان على ان ينتقل

من (حياته الحقيقية) الى (حياته الوهمية) أو من (حيوانيته) الى (انسانيته) ؟

انه الضمير ٠ ٠ فالضمير فى نظر بيراندللو هو الذى يفرق بين الانسان والحيوان .. وبين الانسان والنبات .. الضمير الذى يولد معنا يوم ميلادنا ، ويصاحبنا حتى الموت .. هو الذى يفسر حياتنا .. هو الذى يقيدها بالاوضاع ٠ ٠ ويخضعها لناموس الخطأ والصواب ٠ ولكن هل استطاع الضمير ان يكبح غرائز الانسان وشهواته ويمنعها من الظهور والانفجار بين يوم وآخر ؟ لا .. لم يستطع الضمير ذلك ، فحيوانية الانسان لا تزال كامنة فيه تتلمس الخروج كلما وجدت الفرصة المناسبة وكثيرا ما تستبد بصاحبها وتعميه وتسيره فى الطريق الذى تشاء .. ولذا يرى بيراندللو ان كل شقاء الانسان النفسى انما هو وليد وجود الضمير .. فقد اراد الضمير ان يكبل الطبيعة الانسانية بسلاسل التقاليد والاوضاع الاجتماعية فى حين أن الطبيعة لا تعرف التقاليد .. ولا تخضع للاوضاع .. فلا الضمير اذن استطاع ان يميت (حيوانية) الفرد فتسود (انسانيته) على الدوام . ولا سمح لهذه الحيوانية ان تتحقق وفوقها ليحيا الانسان (حياته الحقيقية) وكانت نتيجة ذلك نشوء ذلك الكفاح الدائم بين شخصية الانسان الطبيعية وشخصيته الانسانية اى بين حيوانيته وانسانيته .

هذا الكفاح القاسى بين الشخصيتين الكائنتين فى كل منا هو الذى يخلق ذلك الهم الممتزج بالابتسام .. والتشاؤم الممتزج بالسخرية الذى هو أظهر ما يميز فن بيراندللو ويطبعه بطابع خاص .. بيد ان هذا الطابع الخاص لم يمنع بيراندللو من ان يكون ملتقى عدة تيارات فكرية كان لها تأثير كبير فى تفكيره .. فغرابة شخصيات القصص تذكرنا بقصص الكاتب الروسى دوستويفسكى والكاتب النرويجى ابسن ٠٠ وطريقة تحليل نفسيات الابطال والبطلات المضطربين الحائرين بين الحقيقة والخيال تبين لنا بأجلى بيان الاثر العظيم للعالم النفسى فرويد عن (اللاشعور) أو ما يسمونه (العقل الباطن) والعالم اينشتين عن (النسبية) والفيلسوف برجسون عن (الحركة) ٠ كذلك فيها كثير من ذاتية الكاتب القصصى مارسيل بروست .

وكفاح الشخصيتين الانسانيتين يختلف نوعه فى نظر بيراندللو عند كل من الرجل والمراة .. فالرجل تتغلب عليه (شخصيته الاجتماعية)

وهو لذلك يحاول جهده أن ينظم حياته ويخضعها قدر الطاقة لأوضاع المجتمع . اما المراة فتتغلب عليها (شخصيتها الطبيعية) وهى لذلك اقل من الرجل قدرة على سيادة نفسها وتقييد غرائزها وميولها .. على ان هذا الاستعداد لدى كل من الرجل والمراة هو عند بيراندللو امر نسبى ومؤقت .. فالرجل لا يستطيع ان يمنع (شخصيته الحقيقية) من ان تحطم احيانا القالب الاجتماعى الذى وضع نفسه فيه .. كما فى قصتى (شهوة الشرف) Volupté de l'honneur و (هنرى الرابع) Henri IV كذلك المراة التى تسيرها طبيعتها تود من وقت الى آخر ان تكبح جماح عواطفها وشهواتها كما فى قصة (كسو العرايا) Vêtir ceux qui sont nus

وازمة بيراندللو المسرحية تحدث عند اصطدام شخصيتى كل فرد. وهى تختلف ــ على ضوء ما ذكرنا ــ عند ابطال قصصه (اى الرجال) عنها عند بطلاته (اى النساء) فالازمة تحدث عند الابطال ــ وهم كما ذكرنا يخلصون للوضع الاجتماعى ــ اما حين يظهر لهم فجأة انهم يحيون (حياة وهمية) على خلاف ما كانوا يتصورون ، حياة تخالف كل ماجبلت عليه (شخصيتهم الحقيقية) واما حين تنفجر هذه الشخصية الحقيقية مرة واحدة وتخرجهم عن الوضع التقليدى الذى كانوا يحيون فيه .. اما الازمة عند البطلات فبالعكس تحدث حين يرين انفسهن مرغمات على الخضوع لوضع مخصوص او لفكرة مخصوصة ، كما فى قصة Comme avant, mieux qu'avant حيث نرى بطلة القصة مضطرة الى مجاراة ابنتها ــ التى تظن أن أمها ماتت ــ فى اعتقادها انها زوجة أبيها .

وفى الفصل الاول من رواية بيراندللو المسرحية نرى حوادث القصة غامضة اشبه ما تكون بالقصة البوليسية .. وكل حوادث القصة تحدث فى الفصل الاول ، فاذا ما جاء الفصل الثانى ــ وهو اعظم فصول القصة شأنا ــ ابتدا دور « التنبه » prise de conscience وفى الفصل الثالث ــ وهو عادة اقصر كثيرا من الفصلين الاولين ــ يكمل دور التنبه ويكون غالبا مصحوبا بحركة مسرحية عنيفة تحل بها العقدة المسرحية .

فنواحى التجديد فى مسرح بيراندللو :

أولا : أن القصة لا تبلغ حدتها فى الفصل الذى يقوى فيه « الحادث » action بل فى الفصل الذى تقوى فيه « المعرفة » connaissance

ثانيا : ان القصة ترمى الى اثارة المشاهدين عن طريق « اكتشاف » حقيقة كانت مجهولة وليس عن طريق « الحركة » geste

ومن الحق ان نذكر ما يوجهه النقاد الى فن بيراندللو ، فقد اتهمه ناقدوه بأن رواياته لا ترتفع عن مستوى الدرام ، بل عن مستوى الميلودرام .. وانه اختار لقصصه موضوعات هى من التعقيد بحيث كان من العسير التصديق بامكان وقوعها فى الحياة الانسانية . واخيرا ان رواياته لا تخلو من بعض الملل لان بيراندللو كان فيها « مفكرا » اكثر من اللازم .

على انه مهما قيل فى فن بيراندللو فانه لايمكن انكار اهمية مسرحياته وأثرها التجديدى فى المسرح العالمى مما جعل بعض قصصه الشهيرة يترجم الى خمس عشرة لغة أجنبية ، كما ان بيراندللو هوالكاتب الايطالى الوحيد الذى استطاع ان يحل المعضلة التى اعترضت كل الكتاب الايطاليين منذ عام ١٨٧٠ الا وهى كتابة عمل أدبى يعالج موضوعات ويرسم شخصيات قومية بحتة وينال فى الوقت نفسه اعجابا عالميا .

لقد تكلمنا عن فن بيراندللو من ناحية « هندسته » المسرحية لكن هناك طابعا نفسيا خاصا يميز أدبه المسرحى وغير المسرحى لامناص من الاشارة اليه حين التحدث عن ادبه بوجه عام والالمام بهذا الطابع الماما كافيا اذا اراد المرء ان يهضم اعماله ، ويفهم سر ما يصادفه من غموض الحوادث وغرابة الشخصيات والسخرية الدامغة بالحياة والناس .

كانت حياة بيراندللو منذ اوائل شبابه سلسلة لا تنقطع من النكبات والمآسى .. ففى عام ١٩٠٤ــ ولما يمض على زواجه عشرة اعوام قضاها فى الهناء والنعيم العائلى ورزق فى اثنائها بثلاثة اطفال ـ اصيبت زوجته بالجنون نتيجة عاطفة حادة من الغيرة انتابتها ، ولقد دفعه عطفه عليها وحبه لها على الاحتفاظ بها معه فى المنزل عشر سنوات بحالتها المرضية التى تفتت الاعصاب مفضلا ذلك الجحيم على الابتعاد عنها أو تسليمها لرعاية الآخرين بأن يبعث بها الى احدى مستشفيات الامراض العقلية .. فلما ضاق بالامر ذرعا وغلبه اليأس من شفائها ارسلها الى احدى هذه المستشفيات .. وكان يزورها يوميا الى أن فارقته بموتها عام ١٩١٨

ولقد زاد من هموم بيراندللو أن جاءت الحرب العالمية الاولى فانتزعت من أحضانه ابنه الاكبر في وقت كان في أشد الحاجة الى انيس يتعزى بجواره عن فاجعة زوجته المنكودة الطالع .

وليت الامر كان مقصورا على ماذكرناه اذ عندما ابتدأ بيراندللو يحيا حياة أدبية موفقة فقد والده ووالد زوجته كل ثروتهما فى نكبة مالية فهوى الاديب الشاب مرة واحدة من حياة تبشر بالاستقرار والراحة الى التعاسة والفقر .. وذاق الاهوال عدة سنين لاطعام زوجته المريضة واطفاله الصغار .. الى ان استطاع فى النهاية ان يفوز بوظيفة مدرس يتقاضى منها مرتبا يستطيع به أن يسد لوازمه الاولى .

كان لتلك الحوادث المتتابعة الاليمة أكبر الاثر على فن بيراندللو .. كانت كل شيء فى فنه . فالسنوات العشر التى عاشها بجانب زوجته المجنونة كانت أغزر السنوات فىانتاجه المسرحى .. كان بيراندللو يجد فى الكتابة والملاذ والمأوى .. كان يجد فيها الوسيلة التى ينتقم بها لنفسه ويسخر بوساطتها من الحياة ومن احلامها الجميلة التى ما أهون أن تنهار بين عشية وضحاها كقصور من الرمال .. فكل قصصه القصيرة والطويلة وكل مسرحياته لم يكن لها من غرض الا رسم الحياة بالصورة التى يراها عليها وتبصير الغافلين فى نظره بتفاهة الحياة وقسوتها .

والعجيب ان قصص بيراندللو التى كتبها مؤلفها بدموعه تتضمن بطبيعة حوادثها ومفاجآتها مشاهد قد تثير الضحك احيانا . فأى بون بين قرائها او نظارتها وبين مؤلفها ؟ ان بيراندللو لم يحاول ان يبتسم دقيقة واحدة فى فنه ولا فى حياته .. لقد كان يكتب مؤمنا بانه يؤدى رسالة فرضتها عليه الاقدار .. وهذه الرسالة هى أن يكشف عن وجه الحياة كما يراها لمن لا يعرفها .. كانت الطيبة والبساطة رائده فى كل ما كتب .. كان يكره الاستار والحجب .. الم يسم مجموعة مسرحياته (الأقنعة العارية) ؟ ألم يسم مجموعة قصصه القصيرة (الحياة العارية) ؟ لقد أراد أيضا أن يموت عاريا ... عاريا من كل تكلف او صياغة . فكما كان فى اثناء حياته يكره المجتمعات والحفلات كذلك اوصى بالمحافظة عند موته على خطته فى حياته فلا تقام له حفلة جناز كسائر الناس .. بل بلغ به الامر أن اوصى بان تحمل جثته الى مقرها الاخير فى عربة الفقراء وألا يسمح لاحد ما بالسير وراء النعش الى مقره الاخير .

والواقع أن بيراندللو كان مبالغا فى تشاؤمه • والحياة لايمكن أن تكون بالصورة التى رآها بها .. واذا كان من المسلم به أن الحياة مليئة بالنقائص والمآسى .. فان مهمة المفكر ألا يستسلم للتشاؤم والا يقف موقفا سلبيا حيال مشاكلها .. مكتفيا برسم صورها الدامية ، محجما عن محاولة الوصول الى حل واقعى لما يراه وكأن سبل الامل كلهـا قد سدت فى سبيل الاصلاح والخلاص ..

بيد انه برغم هذا العيب الظاهر فى تفكير بيراندللو فاننا لا يمكن أن ننكر أنه خالق فن تجديدى رفيع •• وانه وان كان قد ركب متن الشطط فى نظرته السوداء الى الحياة فقد كان فى كل ماكتب رساما ملهما لكثير من الجوانب الخفية للشخصية الانسانية .. وكان هدفه الاول فى تصويره وفنه أن يكون خالص النية ، برىء السريرة ، مفعم القلب بأنبل العواطف البشرية .

فهرس

الموضوع	الصفحة


الدار القومية للطباعة والنشر
فرع الساحل



الدار القومية للطباعة والنشر

العـــدد ٧٧
الثمن ١٧ قرش